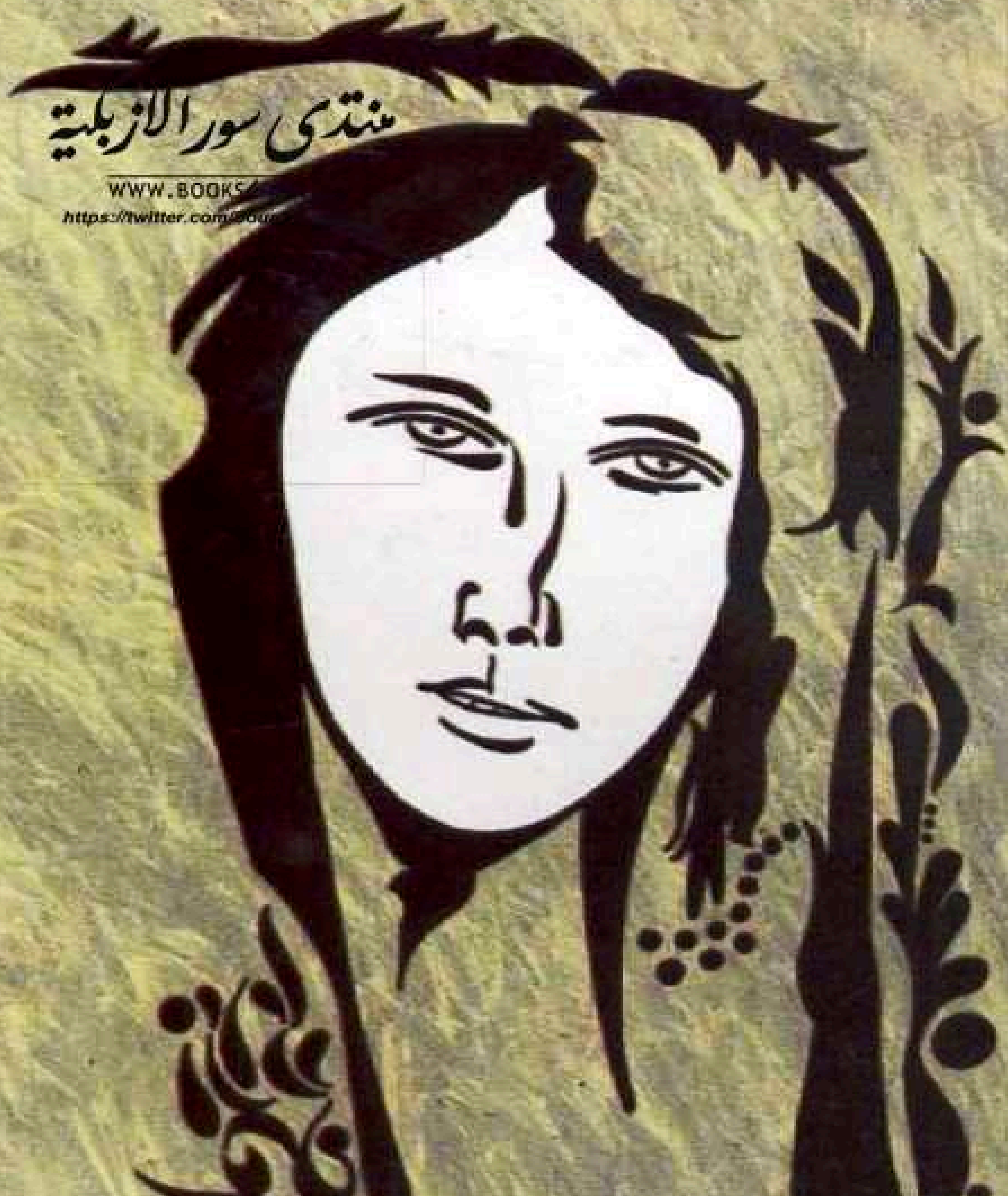
مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع
٢٠٠٣

فؤاد قنديل

بذور الغواية



الأعمال الإبداعية

« بذور الغوايـة »

روايـة

فؤاد قنديل

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

بذور الغواية «رواية»

فؤاد قنديل

تصميم الغلاف
والإشراف الفنى:

للفنان : **محمود الهندى**

الإخراج الفنى والتنفيذ:

صبرى عبدالواحد

الإشراف الطباعى:

محمود عبدالمجيد

المشرف العام :

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

« بذور الغواية »

روايــة

على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د.سمير سرحان

« موال عبد الجبار »

كان النهر الصغير يمضى وقد سئم المسير كسمكة ميتة ، انطفأت حدقات الماء برغم دغدغة الشمس الوادعة ، ولم يفلح مع مراياه المتكسرة حماس أوراق الشجر التى كانت تطلق أناشيدها المبهمة كلما لامستها نسمات الغروب لمسا ناعما ، وهمست فى آذانها همسها الحنون المثير .

اختنقت الشمس واستسلمت للفراق الحتمى وشرع كل حى فى وداع النهار . . ها هو ليل جديد يضاف إلى الليالى القديمة . . يأتى مثل آبائه وأجداده وكل سلالته هادئا ومخلصا فى كآبته وصمته البائس .

ينادينى عبد الجبار بغير صوت وإنما براكية نار . شمس جديدة يشعلها الصعيدى الطيب ويبدأ فى نسج مواويله الأسيانة . شمعة تضىء العالم الكبير الذى يمتد من وحدتى إلى روحى المقفرة . شىء ما بداخلى يبحث عن شىء لا يعرفه ، ويسأل عن أشياء لم تتحدد ملامحها ولكنها معلقة فى مكان ما ، مختبئة فى مكان ما . تركب زمانا ما ، وتسبح فى بحر ما ، أو تتشبث بفرع فى شجرة . وربما يقبع هذا الشىء تحت قشرة الأرض التى أجلس عليها الآن . . مادا يدى إلى النار . . والنار تجرنى منى وتستخرجنى من

ظلماتى فأحدق فيها ، لعلى فى هذه النار المتأججة المتراقصة المدلهة أجد ما ترجوه روحى ، ويتقلب طيفه المجهول فيها ، ليت على غير الانتظار يفاجئنى البزوغ الجميل .

●

كنا نعمل فى مزرعة العميد مرسى بلاطة التى تقع مع مزرعة أخرى على أطراف قرية هامدة لا تبتعد عن القاهرة غير ثلاثين كيلو .

يمامة الروح تتجول فيها بين الطين الذى ينغرس فيه كل شىء وبين الأراضى التى بعثرت شعرها الأخضر من حولنا وتطاول ، ثم علا وتدلى وعاد ينفذ فينا ، ليكمل دائرة محكمة من الطين والصمت المتعفن والاخضرار الجميل ، لكنه اخضرار لا يلون إلا عينى ، وتبقى يمامة روحى المتوحشة تتجول فى الفراغات الفسيحة حولى وفىَّ ، وتنام فوق أسنة الأسئلة التى أنهكها الجوع ، وتظل ترقب الفراشات التى خلَّفت وراءها مساء القرية وجاءت تتصعلك حول النار تخفى شغفا مستبدا للنهاية الموشكة . صوت عبد الجبار سلاسل ذهب وشكله قطعة من الصخر . . كيف ركَّب الله لهذه الصورة هذا الصوت الشفاف كما الموسيقى . . صافيا وسالكا . . هات يا عبد الجبار . . تنهد وقال :

الليل كما الغول وكل الناس تخاف منه
إلا قتيل المحبة لم يخاف منه
البنت جالت لابوها ولا اختشت منه
توب الحيا داب يابا والنهد بان منيه

والـزرع اللى بحـرى البلد طـاب .. عَجِّـل عليـه لمـه
لـيـطير الـظنـايـا يـقـطعـوا النـوار مـنـه
ويعولُوك همُّه

●

كان بالمزرعة مـائة عجـل ، نقوم عـلى خدمتهـا أنا وعبـد الجبار . . لا نتوقف عن العمل إلا العصر . . فنتناول غداءنا وندخن السجائر ونشرب الشاى ثم نتمدد قتيلين أمام باب المزرعة بجوار شجر الموز الضخم .

لم أكن أعرف أن شجرة المـوز لا تنتج إلا مـوسما واحـدا ثم تقطع من جذورها ، وتكون قد ولَدت قبل أن تلقى حتفها عدة شجرات تكبر حولها وفى أحضانها .

. . أشفقت على عمر الموز القصير ووحدته وهشاشته . .
هل أكون أنا شجرة موز صغيرة

●

لا يغسلنى من هواجس العصر إلا هبوطى إلى النهر ويعمل الصابون واللوف عملهما فى ، وأطلع إلى الوجود شخصاً آخر لأسخر من عبد الجبار الذى لا يستحم إلا بالطين والحجر .

أسحب السنارة كعادتى وأجلس فى مكانى الذى اهتديت إليه منذ شهر تحت التوتة الكبيرة وأبدأ حوارى وتأمـلى فى الماء ، أراقب السمـك الذى يقترب من السطح .

يحضر عبد الجبار ليتعلم . أتحدث إليه ، وأنظر إلى البنات اللائى يغسلن الأوانى هناك عند بطن الكوبرى الصغير آخر حدود القرية يضحكن ويثرثرن ، وأرنو أحيانا إلى ملابسهن التى يعقدنها فوق الأفخاذ ويتركن للماء فرصة للعبث باللحم المشبوب ، ثم يفاجأ عبد الجبار بى وأنا أخطف السمكة من الماء خطفا ، فإذا هى تنطلق كالسهم إلى الفضاء لتدور حول رأسى ثم تلقاها يدى الخالية ، تقبض عليها بحنان تاركة مساحة لحركتها الغاضبة .

علّمت عبد الجبار أن يبحث عن الغابة الجيدة السرحة . . الطرية القوية . . يقطعها من وسط إخوتها المكدسين عند الجسر العالى الذى يحضن مياه الرياح ، ويسويها على الموقد . . يجعلها تمر خلال النار ، كأنها تثقب جبلا زجاجيا متراقصا ومحموما ، وبعد أن تتحمص جيدا وينضج لحمها وأتأكد من أنها موزونة أُركِّب فيها الخيط والسنارة والغمازة . . كان على أن أسأله قبل أن أقول حرفا :

ــ هل تحب السمك ؟

ــ جدا يا بوى ؟

ــ حب السمك يجرك لصيده

ــ جرنى

ــ صيده غية ومزاج ، واحسن رفيق للوحدانى

ــ كيف وانت معاى أبقى وحدانى

كان عبد الجبار أكبر منى بنحو عشر سنوات ، لكنه يبدو كمن لم يولد إلا بالأمس القريب ، لا يعرف أى شىء إلا أن يطلق النار ، وحتى هذه لم

أرها ولكنه هو الذى قالها ، ولا بأس من تسجيلها له ، وأخيراً تعلم علاقة العجول ، وأنا اتعلم منه دون أن يدرى . . قلت له :

ـ عمى عنده مزرعة كهذه تماما ، وفى الأجازة كنت أذهب إليها .

جلس عبد الجبار إلى جوارى . . ولف سيجارة ومدها إلى ولف لنفسه سيجارة ثم أشعلها ولم ينطق إلا بعد أن سحب كل منا نفسا

ـ لا تؤاخذنى . . نفسى أسألك عن الذى رماك

ـ وهل سألتك ؟

ـ إسأل

ـ ستقول وحدك دون أن أسألك

يضحك من قلبه وتبدو أسنانه الصفراء

ـ أنت صغير لكن شيطان

وأتنهد سعيدا بالوصف . . أنا شيطان . . شيطان لم يمارس شيطنته بعد . . ما زال يدور حول نفسه والمجال محدود . . سمك وعجول .

كانت الغمازة الطافية على وجه الماء تحاول أن تلعب بى ، السمكة تجذب الطُعم جذبة صغيرة وتبتعد ، ثم جذبة وجذبة لتر ى طيش الصياد أو نوع الطعام . . هل هو من عند الله أم من عند الشيطان . تركتها تلعب كما تشاء فالغمازة ترقص رقصات متعددة . . لها ميزان وبينها روق لا تخيل على من كان مثلى . لست وحدك يا ابن آدم من دون خلق الله مكير . مخدوع لو حسبت إنك فى الذكاء فريد . . مخلوقات بعدد شعر رأسك تفوقك . كل

الحكاية أن سكتها غير سكتك .. ايش قولك .. هات يا عبد الجبار

موال :

الصاحب اللى يفوتك يجّن انه مات
اترك سبيله ولا تندم على اللى فات
الصجر بيطير وبيعلى وله همّات
يجعد فى الجو عام ولا تنين
يموت من الجوع ولا يحوّد على الرمّات

●

من مزرعة منير الوسيمى خرج الحصان يتهادى يحمل زهرة بيضاء . دنا الحصان ، وتزايدت سرعته .. لمحت الوجه الجديد الممتّع بالحياة.وجه عنبرى يجمع بين التوهج والنعومة .. العيون خضراء وكنت أحسب إنها لا تنبت أبداً فى الحدائق السمراء ، الفستان أبيض منثورة عليه ورود حمراء صغيرة ، يد قوية تقبض على مقود الحصان الأشهب الرشيق . شريط أصفر فاقع اللون يثبت إلى الرأس شعرا طليقا يجرى فى عكس اتجاه الوجه المؤتلق .. تابعتها وأنا فى شبه ذهول حتى غابت بين ألفاف الشجر المتعانق .

فجأة تذكرت أننى رجل وإن كنت لم أتجاوز العشرين ، لكنى كنت ممتلئا بالحيوية والقوة طويلا نسبيا ومفتول العضل ، وفوق شفتى مشروع شارب لا أدرى لماذا يمهد طويلا للبزوغ .

سيارة فورد سوداء طويلة عفرت علينا فى الظهيرة . وقفت أمام فيللا منير الوسيمى ونزلت منها العائلة لعل هذه الفتاة من بينها . سألت عبد الجبار فقال إنها مشيرة ابنتهم وكانت عند أختها بالقاهرة بعد أن أنهت امتحانات السنة الثانية الثانوية ..

•

ـ وكيف عرفت هذه المعلومات مع أنك لا تتحدث إلى أحد ؟

ـ كان عم نبوى الخفير يحضر إلى ونتحدث قبل مجيئك .

ـ وهل تغير الحال؟

ـ زاد علينا العمل وزادت العجول وتعددت زيارات الباشا وأسرته

ـ ألم يكن يحضر خميس وجمعة كما يفعل الآن ؟

ـ لا . . كان كل شهر مرة . .

ـ اسمها مشيرة

رفع إلىّ عينيه وفحصنى ثم قال :

ـ هيا بنا . . الليل دخل ولازم نعشى العجول

ـ لن أتحرك من مكانى ، والليل لم يدخل

ـ على كيفك . . فقط تذكرها

ماأن أغلق عبد الجبار عليه الباب الخشبى الصغير المفضى للمزرعة حتى سمعت طرقات الحصان عائدا من حيث ذهب . . أخذت نفسا عميقا فقد لا تتاح الفرصة كى أتنفس مرة أخرى . . وضعت السنارة جانبا وأشعلت سيجارة وسويت ملابسى وجلست على حجر عال لأضع ساقا على ساق . . وتأكدت من جديد أن ثيابى نظيفة وكانت لحسن الحظ أول لبسة بعد غسيلها.الحصان أشهب لكن غرته سوداء . . حركة سيقانه أعلى من اللازم ولكنها أبطأ من المعقول . . هل كان يحس أنها غير طبيعية . . كان يرقص مستمتعا بالإيقاع ، وهى فوقه تعلو قليلا وتهبط والصدر يرتج والوجه أضاء بالدماء الدافئة وسكن الشعر تقريبا على الكتفين . . هممت أن أقف فى مواجهتها ، وأقول لها : حمدا لله على السلامة .

سألت نفسى عن ردها . . إنها جرأة لا تليق . . هى لم ترنى من قبل . . بقيت فى مكانى وتفرغت لتأملها . . كان المشهد كله يعـزف لحنا منسجـما وجميلا ، يمشى بالثقة والكبرياء ، حتى لقد أحسست أنى الغريب ، ويوشك كل ما فى المكان أن يطردنى ، حاولت أن أبتسم لها . . لم تنظر نحوى لكن وجهها يشيع فيه الابتسام . . دق قلبى عندما دنت منى . . هل كان هناك موعد بينها وبين قلبى البكر . . ذلك القط الأعمى الذى لم يسمع عن صنف النساء طيلة حياته حتى أمه .

كان الأهل قد أيقنوا أنى مُت فعلا وأنا فى طريقى خارجا من الدنيـا الصغيرة إلى دنيا بلا نهاية ، هكذا قالوا . . وبعد أن ألقونى جانبا ويئسوا منى ، دبت فىَّ الحياة ولكن أمى أبت أن تبقى وأنا فيها لأكثر من يومين . . رحلت على عجل ، وما دامت قد رحلت فمن المؤكد أنها كانت سيدة جديرة بالحياة .

مـال على عبـد الجبار وقـال : ما حـد خالى من الهم . . حتى جلوع المراكب وسألنى :

ـــ ما لك ؟

ـــ أبدا

ـــ سافرت أو طِرْت

ـــ أخوك الصغير بلا أجنحة

ـــ رأسك ليست فوق أكتافك

ـــ ليس لها مكان آخر إلا تحت قدمى

ـــ لا قدر الله

ـ إذن كُف عن هذا يا عبد الجبار ، وأحسن لك هات موال

تنهد عبد الجبار فقلت : أقلها موال ينزه صاحبه .. أليس هذا كلامك ؟

فقال : ويزيح عنه .

ابتسمت ابتسامة مبتورة وقلت له : هل تحسب أن تحت العمة شيخ ؟

قال عبد الجبار بصوته الأسيان وبكل ما فيه وما يجلس عليه من براكين : ـ

يا حلو يا للى شغلت الناس بعيونك
لك وجنتين حُمْر ، محلى الكحل فى عيونك
اذا كان لسانك تجيل إبدى رموز بعيونك
وان كان على الوصل اكتب على وصالك
دى طريقة صعبة ما عرفشى انا أوصلك
كل ما اطلب وصالك ، تجيب الشال على عيونك

لماذا أفكر فيها ؟ هى أنثى مكتملة ، عروسة تنير الدنيا بكاملها وأنا على الارض أجرى حافيا ، يأكل حصى الأرض وشوكه من قدمى ، وهى فى السماء محلقة بأجنحة من ذهب وحولها طيور كثيرة ضخمة تحرس موكبها .. كيف أفكر فيها ، .. كيف يسمح الله لكل إنسان أن يفكر كما يشاء .. أليس هذا دليلا على غبائى . لكن الذبابة المجنونة بدأت تعمل عملها فى كيانى بسرعة وتنضجنى بصورة لا تحتمل الإرجاء إلى اليوم التالى .

حاولت طيلة النهار أن أتذكر أى لحن لأغنية وادندنه . . وأسعفنى عبد الحليم حافظ بعدة أغان « على قد الشوق اللى فى عيونى . . يا جميل سلم » . . « وفوق الشوك مشانى زمانى » وغيرها كثير ، الله يكرمه . . كنت محتاجا لأغنية ، لكل أغانى الدنيا كى أغنيها وأنا أفكر فى مشيرة وأرسم ملامحها القمحية وعيونها الخضراء الواسعة . . أدركت فجأة لماذا يحب الناس الأغانى والموسيقى والتمثيليات والرقص . . الشعر والروايات . كانت أعصابى وعقلى وكل قطعة فى جسدى تعمل معا صوب الأميرة مشيرة الوسيمى . . تتخيل حياتها وطريقة أكلها وتشكيل جسمها وصوتها . . وتتصور حجم ثدييها وبطنها وطول أظافر قدميها ونعومة لحمها وطعم شفتيها لو لمست أى شىء . . .

الأيدى كانت تعمل فى خدمة العجول ، ترفع السبلة وترش العلف وتملأ لها خزانات الماء ، وتمر على أجسادها بحثا عن أى حشرة أو كدمة أو لاقدر الله ورم أو التهاب . . لكنى كنت أتوقف لحظات أمام عيونها . . كانت أجمل مما أتصور . . ويبدو أن لها لغة . وفى رأسها أفكار وأحلام تستحق الظهور وتحتاج إلى التعبير ، فمن يترجم لنا من ؟ . . مرة واحدة فقط شرح لى عبد الجبار أوجاعها وطباعها . . وسرعان ما تفوقت عليه . . شعرت بحنان غريب يتسلل إلى ويدفعنى لاحتضانها ومداعبتها . . وبدأ بعضها يحفر الأرض غيرة . . ربتت على ظهور الجميع وأحسست قربا منها وتشابها غامضا بينى وبينها . .

عاد إلى التحدى الغريب الساكن داخل أعمق أعماقى والذى يظهر أحيانا . . استنفار روحى عجيب ، يجعلنى أرى السماء فى متناول يدى ،

وتجرع كل ماء البحر لا يمنعني عنه إلا قلة الفراغ والامساك بالشمس أرجته رحمة بالعباد .

أنا كنت فى طنطا أجرى وأراهن السيارات بينى وبين نفسى أن أسبقها وأسبقها فعلا إلى أن يلتقطنى من أمامها ويفسد السباق عمى الكمسارى .

بعد العصر دخلت حجرة نبيل بلاطة ابن صاحب المزرعة وهو مقيم بصفة شبه دائمة فى القاهرة وأخذت جلبابا أنيقا من دولابه على مقاسى . مشطت شعرى وتعطرت ، ولبست بلغتى الجديدة . . أخذت الخيزرانة لأسوق بها الجلباب وأضرب عليه ضربا ينبه القادمين سحبت السنارة وعبرت المتر الصغير . . وقعدت فى الضفة المقابلة بالضبط لباب مزرعة مشيرة .

جلست أصطاد ، عينى تنتقل من سمكة لسمكة ومن بحر إلى بحر والطُعم بعد الطُعم لا يرجع لى ولا يطلع سمك ، وبعد قليل ظهرت فى الشرفة ، السمكة الحلوة ذات العيون الخضراء شافتنى وشفتها . . شريط بمبى على شعرها يكشف للكون كله موقع الأرض .

وقفت لحظات ثم دخلت . ظهرت فى الحديقة الأمامية فى ثوب فضفاض . . جلست قبالتى على كرسى خيزران ومدت ساقيها على كرسى . . كان بينى وبينها سور من الخضرة ، لكننى أراها وهى تقلب فى مجلة كلها صور ملونة ، وأضبطها وهى تبعث نحوى نظرات خاطفة ، لكن الليل فجأة هبط وأنا لم اصطد شيئا وهى طبعا لم تقرأ شيئا ، لم أشأ أن أقوم قبلها ، وسرعان ما جاءها أخوها الصغير فطلعت معه ، وعدت إلى عبد الجبار الذى سَخَرَ من صياد السمك وكان بالكاد قد عاد بالسنارة .

فى اليوم التالى أسرعت للصيد بعد أن عادت من رحلة العصر مع حصانها المتيم . كانت الحصيلة سمكتان وعدة نظرات ، نعمة كبيرة . . أما فى اليوم الثالث فخرجت بالحصان ولفت من الجهة الثانية وعبرت الجسر الصغير ومرت بجوارى ، وتظاهرت أنى لا أهتم بمرورها . . لكن قلبى كان يقفز حتى يرتطم بسقف ضلوعى ، ثم يسقط فى القاع . . يقفز ويسقط ويحاول الخروج من القفص دون جدوى .

تابعتها بنظراتى وهى تزيد من سرعة الحصان وتتقافز معه ، وبعد نحو ربع ساعة عادت من ناحية المزرعة . . أسرعت لألقاها ، وأراها عن قرب . . أحتضن وجهها بعيونى وأسلم لها قلبى المضطرب .

لحقت بها قبل أن تدخل مزرعتها وكانت قد تباطأت كمن تريد التحدث إلى . . وقفت وقلت لها : مساء الخير . . فردت على برقة . . وكان هذا أكثر مما أتوقع . فكرت أن أقدم لها السمك الذى اصطدته طمعا فى جملة أخرى لكنى لم أجد صوتى . اكتفيت بالصمت وتأمل جسد الحصان وهو يمضى بها عنى ولاحظت أنه فرسة .

تنبهت لحالى فإذا أنا وحدى والبهائم قادمة فرحة بالعودة إلى الزرائب ، والعصافير شرعت هى الأخرى تسرع إلى أحضان الشجر .

بهدوء شديد مشفقا على كل شىء نقلت خطواتى صوب المزرعة . . ثملا كنت . . حالماً كنت أو نائما . . شخصاً آخر كنت . . وديعا ورقيقا .

ما أن وصلت المزرعة حتى تلقانى عبد الجبار بذُلّه وضعفه ، مفزعا يلومنى على عدم وجودى وقد حضر العميد بلاطة ... دَهِشْت كيف لم أحس

بسيارته . . أعطانى عدة جنيهات ولفة فيها ملابس وقال : البك وصل ويقول لك . . عيشك انتهى معه .

لم أفكر ولم أهتم . . هممت بخلع جلباب ابنه نبيل ، أسرع عبد الجبار يقول :

ـ لا تخلع . . هو قال يجب أن يأخذها معه .

ـ أحسن

شملنى رضا غريب كأن مزرعة بلاطة آلت إلى . . شعرت أنى ربحت أشياء لا أعلمها على وجه اليقين ، مع أنهم لم يسيئوا إلى قط . . ودون تفكير تحولت إلى مزرعة الوسيمى وناديت عم نبوى الخفير وطلبت مقابلة صاحب المزرعة . كان رجلا عجوزا . . عرضت عليه العمل عنده فوافق .

فى هذه اللحظة ولأول مرة أدركت أن هناك قوة كبيرة تحرك الكون وتحرسه ، وهى ترتب لى أن أكون بقربها . بل معها ، فى مكان واحد هو الآخر قمحى اللون وعيونه خضراء .

جلست على كنبة عم نبوى أتعجب من حكمة ربنا ومن التطور المذهل فى حياتى خلال أيام قليلة ، ورأيت سحلية كبيرة تتأملنى . . ونفسى راحت للصعيدى تسأله عن موال . ولم تمر دقائق حتى سمعت صوته . . ترددده نسمات الليل ويدق بابى . . مددت أذنى ، أمسكت حبل الغناء وربطته بحشاى :

علیل يجول للطبيب . . طببنى يا طبيب

اطببك يا عليل وجع الدوا على مين

أم العليـل جـالت طببـه يـا طبيب وأدى لــك جميـع مــالى
أخت العليل جالت طببه يا طبيب وأدى لك حلجى وخلخالى
أبـو العليـل جـال طببـه يـا طبيب وأدى لـك مـراح خـالى
تــزرع وتجــلع ويــبــجــى لــك عــنــدنــا عــلامــات
طــج العليـل مــات من جـولـة حـج الــدوا عـلى مـين

●

الحافلـــة

لم أكن أتصور أن مثل هذه الحافلات الضخمة ذات المقدمات الطويلة لا تزال موجودة حتى وقفت إحداها أمام مكتبنا بشارع ٢٦ يوليو . . مكتبى القديم الذى لا يحلو لى لقاء الضيوف إلا فيه .

وقفت الحافلة فى الجانب الآخر من الطريق . سمعت هرجا فاستدرت بالكرسى الجلد . تأملتها لحظات وهى تلفظ من بابها عشرات البشر ، رجالا ونساء ، أطفالا وشيوخا . . ما لفت نظرى هو الرسوم الغريبة التى على السيارة . . حيوانات مجهولة لها أسنان كبيرة وقرون ، أسود كثيرة كبيرة وصغيرة وسلاحف ، وبين الأقدام عدد من البنى آدمين صغار الحجم وضائعون .

وصل شملولة وقدم لى ملفا كاملا عن المشكلة التى ورطنا فيها مدير إحدى جمعياتنا بالإسكندرية مع محافظها وهو إنسان طيب يسهل التفاهم معه ، لكن المدير كان قد قطع شوطا كبيرا فى الغباء .

ما أن فتحت الملف حتى بلغتنى ضجة قريبة ، أصوات عالية واحتجاجات والباب الزجاجى الكبير يفتح بشدة وعدد كبير من الناس يتدافعون نحوى وينادون على :

ـ يا غريب . . يا غريب بك

أسرع إليهم صادق شملولة بحجمه الهائل ، لكنهم دفعوه وانتشروا فى الحجرة فملأوها رغم اتساعها وبقى منهم عدد فى الردهة . . طامنوا من ضجتهم وانتظروا منى الخطوة التالية . . ثمة شىء غريب وغامض يوحى بأن هؤلاء الناس أقاربى بصورة أو بأخرى . . شىء ليس ماثلاً فى الملامح ولا فى الطول أو فى القصر .

تطلعت فيهم جميعا فلم أعثر فى ذاكرتى على المفتاح . أخيراً سقطت نظراتى على رجل عجوز ومحطم ، دهشت لأنه لا يزال حيا . . هل يمكن أن يكون أبى . . مررت بهم ثانية وعدت إليه . . إنه هو . . إذن هذه هى العائلة .

قلت : إجلسوا جميعا . . إجلسوا على أى شىء

لقد تجاوز عددهم السبعين نسمة . . هؤلاء هم ركاب الحافلة العجيبة . . بينهم شباب ضخام الجثث مفتولو العضل وعيال ملوثة وبنات جميلات .

قلت لصادق : أترك لى الملف

أشار إليهم بعينه ، قلت : إطمئن

عدت أتطلع إلى هذا الوفد الضخم من أهلى . . رأيت بينهم كائنات عجيبة . . كيف عاشت حتى الآن وهى تحمل هذه الملامح الصادمة . .

وجه به الفك السفلى ملتو

ووجه به الفم دائما مفتوح إلى آخره ليذيع باستمرار بيانـات البلاهـة نصف الأفواه بلا أسنان والنصف الآخر أسنانه محطمة أو بنية وسوداء من الدخان السيء والسوس . . بينما الأشداق كلها معتمة .

بعض الأنوف معقوفة بحدة غريبة كالحنفيات

قواقع الآذان كبيرة جداً وكلها إلى الخارج مشدودة

أعناق طويلة القصبة ، ورؤوس تخرج مباشرة من الأجساد

وجوه جرداء الملامح كالصحارى

وأغلب الوجوه تشققت وتصدعت من كثرة الخطايا

كان أبى لا يزال كما هو يدخن ويبصق . .

يكح ويسعل ويبصق . . ينتفض ويحتقن ويحمر ويزرق ثم يبصق ويكح كحة أخيرة وقصيرة ثم يخمد ويتنفس بارتياح .

عجيبة . . هل كنت أنا ضمن هذه الجوقة من النفايات .

تطلعت إلى أبى طويلا وحاولت قدر جهدى العثور على غيره ممن أعرف، كانت المهمة غاية فى الصعـوبة ، إن بينى وبينهم أكـثر من خمسة وثـلاثين عاما . أغمض عينى وأنا أحاول الحساب . . كيف أعيد إلى بعضهم الملامح التى كانوا عليها وكيف أتذكرها . جرحت حلقى غصة ومرارة شديدة وندم لأنى لم أتنبه أو أهتم بالسؤال عنهم . . أكلتنى القاهرة والمشاغل الهائلة التى احتوتنى وأغرتنى .

تنفست بعمق وجـذبت مـا استـطعت جـذبـه من السنـين والأيـام والذكريات . . استطعت تمييز بعض أعمامى وزوجـاتهم ، وافترضت أن

الباقى هم ذرياتهم . . جمهورية صغيرة جاءت تبحث عن شخص ينتمى إليها ، سمعت أن له شأنا .

كانوا جميعا يجلسون أمامى ويتطلعون وأنا أمر عليهم وكل واحد ينتظر باهتمام وأمل أن تقع نظراتى عليه وينال الرضا ، يتمنى بينه وبين نفسه أن أتعرف عليه ، وأذكر له مواقف وأحكى له ذكريات جمعتنا يوما .

كل الوجوه كانت تحدق وتفتح الأفواه والعيون لتشجعنى على التذكر ومؤكد أنها تفتح الآذان وتقدم لى كل أعصابها ، أما الأولاد وهم أكثر من نصف الشعب الأبله فكانوا شياطين ، لم يعبأوا بى ولا يريدون حتى أن يعرفوا من هذا الذى يمر بينهم . لم يجلسوا فى مكان ولم يسكنوا لحظة . طلعوا فوق كل شىء وعبثوا بكل شىء ، لم أمنعهم ، بل منعت من يمنعهم .

قلت : أهلاً

قالوا فى صوت واحد كأنهم تلاميذ فى مدرسة : أهلاً بك .

كيف الحال . . إن شاء الله يكون عال

قلت : حمدا لله على سلامتكم

قالوا جميعا فى صوت موقع تداخلت فيه النبرات الحادة والغليظة :

ــ الله يسلمك ، ويعلى مراتبك ، وتشيلها من الخسرانة تحطها فى الكسبانة قادر يا كريم .

كيف أمكنهم أن ينظموا هذه الردود ، ويحفظوا هذه الأناشيد ، ولماذا ؟

أبى :

لم أشعر بشوق إليه ، لكنى أحسست بالشفقة لشيخوخته المفرطة . .

سلمت عليه فانقض على بضآلته وعانقنى وأخذ يبكى . . لم أتصور أن هناك مبرزا للدموع . . ربت على ظهره فتماسك وقال :

ـ بحثت عنك كثيرا

كانت عبارة غريبة جدا على سمعى ، لا لأنى لا أصدقه ، فلماذا لا أصدقه ؟

ولكن أن يبحث شخص عنى ، حتى لو كان أبى ، مسألة جديدة وغير متوقعة . .

لقد تأكد لى الآن شعور كان يجوس خلال لحظات مبهمة بأنى نمر . . أمى قطة برية وأبى كلب أجرب .

ـ أين بحثت عنى ؟

انطلق كأنه يتوقع سؤالى : فى كل مكان . يعلم الله . ماخليت مكانا فيك يا مصر لم أذهب اليه . . حتى المستشفيات وأقسام البوليس

كانت كلماته بلا معنى . . جافة وخالية من عروق الدم ومن عيون الحياة . . كانت كلماته مثله ومثل هؤلاء الناس الذين يتفرجون علينا

رن الهاتف وتحدث السكرتير ، هناك ضيف . . قلت له :

ـ الغ كل المواعيد . وأنا غير موجود وابعث من يحضر مشروبات وشيكولاتة لمائة فرد .

زغردت النساء وقهقه الرجال . . تلونت أصواتهم المهتمة بمسحة من الرضا والكبرياء . . زاط العيال وتقافزوا وتساقطوا وجروا حول بعضهم فى كل أنحاء الشقة الفسيحة واصطدموا بكل شىء .

ـ وهل جاءت معك زوجتك ؟

كان لابد أن أتذكرها

قال أبي : فنارة . . الله يرحمها . . تعالى يا حنفى أنت وأخواتك . . سلموا على أخيكم الكبير . . كبيرنا كلنا

طلع حنفى من الزحام . رجل أشيب الشعر . . هذا هو الولد الذى تركته وله عدة سنوات ، وهذه هى أخته الكبيرة كايداهم . أحضرت معها سبعة أولاد وهذا هو زوجها وهذان أخوان آخران لها . . واحد يبيع الصحف والآخر موظف فى مرفق المياه أما حنفى فهو سمكرى بوابير . . كان وجهه يشبه الوابور فعلاً .

مضى أبي يعرفنى ببقية أهلى ، وأنا أحس أنهم إحدى قبائل البوشمن فى أفريقيا . . هناك مسافة هائلة تفصلنى عنهم ، والغريب أن هذه المسافة تزداد طولا واتساعا كلما عرفنى بهم . . كيف يحدث هذا ؟

سألته عن عم « زنقنا » الذى كان يعمل عنده فقال : مات ووجد أولاده تحت البلاطة المخلوعة تحت سريره نقوداً لا حصر لها . بعضها لم يعد صالحا والباقى كان كافيا ليجعل من أولاده ملوكا فى بركة السبع . عمارات وأراض وورش ومعارض . طردونى من الورشة بحجة تجديدها ، وكل مال زنقنا الله يرحمه مطرح ما راح كان من دم الغلابة أمثالى . الدنيا إن جاءت باض الحمام على الوتد وإن ولّت قطعت السلاسل .

كان أبي يجلى البلاط فى ورشة الحاج « زنقنا » . . أتذكره وهو عائد إلينا فى المساء منحنى القامة كرقم ٢ مهدود الحيل ، بالكاد يتناول العشاء وينام فى موضعه وسرعان ما يعلو غطيطه وكثيرا ما كنت أتطلع إليه وهو راقد . .

أتأمله وهو منطرح فى وسط الدار وأنظر إلى يده وألمسها فأجدها خشنة قاسية ، أكلهاالجبس والأسمنت والمعسل وكذلك صدره الذى يشبه شكمان سيارة مثقوبا . . كان وهو نائم أشتاق أن أبحث فيه عن الأب . . الأب الحنون الذى أراه فى الشوارع يصحب أولاده ويشترى لهم الحلوى ويحملهم على ظهره أو على صدره . . كنت أتمنى أن يكون كذلك ، لكنه سلمنى لها تماما تفعل بى ما تشاء . . فلماذا كانت تفعل بى كل ذلك ؟

. . لست أدرى وقد كنت مطيعا وراضيا .

بعد أن ماتت أمى أخذتنى أمها مكاسب إلى بسيون . . عشت معها هناك نحو ست سنوات . لعبت خلالها بكل ما أتيح لى من طاقة وانطلاق ، مع جيراننا أولا ثم امتد نشاطى لشوارع أخرى . كانت جدتى بعد أن يطول غيابى تعتمد على عصاها وتدب بحثا عنى ، ولا تعاتبنى أبداً مهما قلت أو فعلت حتى لا أتركها .

كانت « عمشاء » ترى بالكاد تحت رجليها ودائماً عيناها دامعتان ولكنها كانت كريمة وطيبة وتخاف علىَّ من الهوا الطاير ، لم أرها فى حياتى الصغيرة تأكل ، لكنها كانت أحياناً تدخن وتشرب الشاى الحبر وتسخر من جميع خلق الله ما عدا أمى ، أما ابنها الوحيد خالى فكان بائع داندورمة متجولاً . . لم يكن يكف عن العمل والدوران فى كل أنحاء بسيون إلا لينجب .

حَمَلَت زوجته أربع عشرة مرة بقى منهم ثمانية يصحبه منهم كل يوم إثنان ، يدفعان عربته التى على شكل أوزة كبيرة بيضاء ومنقارها أحمر وملمسها ناعم . . الداندورمة تخرج من ظهرها وهناك درج فى مؤخرتها

يضع فيه خالى القراطيس الصغيرة الهشة كالبسكويت . . يقف خالى على النواصى ويطلق زمارته التى تخرج الأولاد من بطون الأرض ثم يردد أغنيته الشهيرة :

يا واد يا سامى
عيط لأمك قدامى
وقل لها هاتى
اشترى من عم زناتى
داندورمة بقرش
. .
جيلاتى . . بتاع زناتى بالقشطة

كنت أطلب من جدتى قبل أن ألوذ بحضنها فى المساء أن توقظنى قبل العصافير وقبل أن يخرج خالى بالأوزة الجميلة التى أحسبها تنظر لى وتبتسم . . أسرع إلى خالى وأدفع مع ولديه العربة وألحس الداندورمة ، لكنى أحيانا لم أكن ألحق به عندما أفتح عينى وتقعان على نهار ساطع ، فتسقط فى قلبى الحسرة ، ولا أستطيع أن أعود إلى جدتى حتى لا تظل الحسرة ساكنة روحى ، ولابد أننى كنت أحاول عقاب جدتى بعدم عودتى إليها لأنها لم توقظنى قبل العصافير كما طلبت . . أذهب إلى الريَّاح وأتفرج على الأولاد الكبار يجرون عرايا فوق الكوبرى ثم يسقطون فى المياه . . يسبحون ويتعابثون ويقذفون بعضهم بالماء والطين ثم يسحب كل منهم غابته ويجلس هادئا يصطاد .

جدتى مكاسب كانت تعبدنى عبادة . تنزل على رغبتى مهما كانت مجنونة أو صعبة التحقيق ، ولم تكن تغضب لأنى أبول لها فى القاعة عينى عينك وأرسم لها أشكالاً لا أذكرها ، وتعطينى قرشا لأهدأ ثم تنظف الأرضية وتتوضأ وتصلى ركعات لا تنتهى وفى أى وقت . لم تنزعج عندما وضعت فى النار ثوبا جديدا من القطيفة كانت صديقتها قد أحضرته لها من الحجاز . . لا أذكر ما الذى جرى منها ، لكنى كنت غاضبا وعادت فوجدت النار عالية وكم الثوب يتدلى من « الموقد » .

لم تسخط علىَّ عندما حطمت لها الغربال وأنا ألعب به فى الشارع ، أما زجاج اللمبات الذى حطمته سواء بالتنشين أو بالكرة فهو كثير .

الجدة مكاسب العمشاء التى لا تأكل إلا نادرا وتسخر من الجميع إلا أمى . . شخصية خرافية . . هى نفسها تشبه الناس الذين كانت تحكى لى حكاياتهم عندما ندخل السرير . . كانت تشبه تماما أخاها الذى كانت شغلته المرور يوميا قبل الغروب على عواميد النور الخشبية وينزل المصابيح . . يمسح زجاجها ويملأها بالكيروسين ويشعلها ثم يرفعها إلى أعلى بواسطة حبل مربوط بالعمود . . لماذا كان اسمه عبد العدل ؟ سألتها . . لم ترد مكاسب ، فتركتها ونزلت أجرى على السلم وأفتح الباب الكبير وأشد جدى من البالطو الصوف ، يرانى فيترك المصباح ويرفعنى ويقبلنى ويشوك وجهى بشاربه وذقنه التى لم أرها أبداً محلوقة . . ولم أعرف لماذا اسمه عبد العدل . . أجمل ما يذكرنى به أنه كان يحضر ويصحبنا أنا ومكاسب لنحضر ليلة ينشد فيها السيد حواس سيرة أبو زيد التى استولت على وبهرتنى .

كان يوما اسود عليها عندما جاء أبى ليأخذنى ، لدرجة أنها أرسلت لعبد العدل حتى يمنع أبى من اصطحابى . . وأبى ينظر لهما فى جمود بعد أن قدم لى العسلية :

ـ لازم يدخل المدرسة
ـ ح ندخله يا خويا
ـ كتر خيرك يا حاجة . . إنت وحدانية
ـ وعلشان كده خليه معايا الله يخليك
ـ ساحينا
ـ قولله يا عبده

ويأخذ جدى أبى من ذراعه ليكلّمه على جنب ، يصر أبى وتصعق جدتى من لوعة الفراق . . فيجذبنى وتستبقينى فى حضنها ولا يتمهل أبى ، وإنما يجذبنى فيجذبنا معا وتنكفىء على ، فيخلعنى منها ، والعسلية تشغلنى عن كل شىء ووعود أبى لى بالسينما والقطار والملابس الجديدة .

تنفجر مكاسب فى البكاء العنيف . أتبين فداحة الموقف وأعود إليها فأعانقها وتقول لى :

ـ تبقى تيجى لمكاسب

أهز رأسى مؤكدا . . يجرنى أبى جرة نصبح بعدها على السلم ووراءنا عبد العدل ونشيج مكاسب . . جدتى الخرافية ، أراها من فتحات الفراندة . . الثقوب الكبيرة التى فى الجدار تسمح لأصحاب الدار بالنظر دون أن تظهر للمارين وجوههم . . آه يا أيام بسيون . عليك السلام . .

أما أنت يا مكاسب . . آه . . بعد أن غادرتها لم يمهلها العمر إلا شهـورا قليلة . . فرحلت دون أن أعود لزيارتها . . أمى الحقيقية وصاحبة الأيـام الجميلة . .

●

الأيام الجميلة التى غابت إثنى عشر عاما وهى عمر طويل فى حياة صبى أطلت من جديد عندما عـرفت مشيرة وعملت لـدى أبيها المهنـدس منير الوسيمى .

كان لمشيرة أختان ، واحدة متزوجة من مهندس ديكور والأخرى من طيار ويقيمون بالقاهرة ، ولها أخـوان ، الكبير يعـد للدكتوراه فى جـامعة اكسفورد . . وولد صغيرفى نحو الثانية عشرة ناعم وخبيث . . ينظر إلى دائما بنظرات زائغة مشمئزة .

طلب منى والد مشيرة أن أحرس حديقة البرتقال ، وقبلت إذ لم يكن أمامى غير هذا ، لم تمض أيام حتى سعيت له وشجعته على البدء فى مشروع تربية عجول ، قال لى العجوز أنه يتمنى ذلك لكنه لم يجد من يعتمد عليه ولم يكن يود الاستعانة بالمهندس الزراعى نهاد وهو ابن أخيه . . . حسنا فعل فهو شخص ثقيل الظل ، لا أرتاح لطريقته فى فرض نفسه على مشيرة ومحاولاته المملة للتقرب إليها ، ولحسن الحظ أنها لم تشعر تجاهه بشىء لكنها كانت ترحب به وتجلس معه يتناقشان بعض الوقت ثم تنسحب بلباقة ، ولم يكن من طبعها أن تصد أحداً .

أقمت بنفسى حظائر العجول من بعض الأخشاب الملقاة على سطح الفيلا ، والأشجار المقطوعة على الجانب الأيمن للمزرعة وقد جفت بما يكفى

كى تصلح . . . أعانتنى خبرتى فى النجارة فلم أطلب غير عدة كاملة وبدأت العمل والأسرة ترقبنى باهتمام ودهشة ، كانت الفرصة سانحة كى أقيم لى حجرة لائقة وإن كانت من الخشب وصنعت كرسيا ومنضدة ، بسطت عليها مفرشا جميلا .

حرصت أن تكون الحجرة دائما نظيفة وملابسى دائما معلقة فى مشجب وراء الباب ، الفوطة منشورة والأرض عليها طبقة من الأسمنت ودائما مكنوسة ، ركبت للنافذة الوحيدة ستارة وسلكا حتى لا تدخل الفئران والحشرات . . اشتريت منبها وراديو صغيرا يسليني وتسرى عنى موسيقاه وأغانيه بعد أن سمح لى الوسيمى بمد سلك كهرباء من الفيللا إلى حجرتى والحظائر .

أهدت إلى أم مشيرة بعض القمصان والبنطلونات اللائقة بثروت ابنها وكانت بداية مشجعة كى أهتم بملابسى ومظهرى ، ووجدها شاربى فرصة لائقة فأطل وأضاء وجهى بالرجولة ، أما شعرى وإن كان خفيفا فقد شارك شاربى فى رسم صورة جديدة لشكلى .

جاءت مشيرة لزيارة العجول وأبدت فرحها وترحيبها بالفكرة وقالت : لقد بعثت العجول الحياة فى المزرعة .

ــ والنبات أيضا حياة

ــ مهما كان النبات رائعا ، فالحركة والصوت والنبض هى الحياة الحقيقية

ــ صحيح

سكتت قليلا ثم سألت : هل تخاف الظلام ؟

ابتسمت دهشا : لماذا تقولين ذلك ؟

ــ رأيت نور حجرتك مضاء أمس حتى وقت متأخر

ــ إننى أسهر . .

ــ وماذا تفعل وأنت وحدك ؟

ــ أقرأ

ــ تدرس إذن ؟

ــ لا . . أقرأ فقط

ــ ماذا تقرأ ؟

ــ سيرة أبو زيد وعنترة . . وأى كتاب يسليني .

ــ وماذا عن دراستك ؟

تلكأت قليلا فى الإجابة فماذا أقول ؟ لأول مرة أشعر بالحرج من هذه النقطة ، أخيرا قلت : لقد توقفت عند الإبتدائية .

ــ خسارة وما السبب ؟

ــ ظروف العائلة

ــ لابد أن تذاكر من جديد .

ــ وضعى هنا لا يسمح .

ــ بل يسمح جداً وسوف أساعدك .

ــ حقا . . يا . . يا مشيرة .

ــ بالطبع . هل تتصور حياتك للأبد وأنت مع البهائم .

لم أرد .

ــ لابد أن هذه فترة مؤقتة يجب أن يكون هناك ما بعدها .

بقيت أنظر إليها ، وأتأمل عينيها وشعرها وحركة يدها والبهائم مثلى صامتة .

ماذا يحدث لى ؟ . إننى أشعر بالبرد والضآلة والغياب

لقد كبرَت جداً فى نظرى وبدا جمالها عظيماً . . وبدأت تعلو وتمتد وتحيطنى بصدرها وذراعيها وأنا أتضاءل وأفرح ولا أنطق . . أنا أذوب فى الصورة الجديدة التى لا أعلم عنها شيئا وأدرك فقط أن شيئا رائعا يجرى على نحو ما .

تنبهت إليها وهى تهم بتركى قائلة :

ـ مادمت تحب بطبيعتك القراءة . . مهمتك ستكون سهلة

حاولت أن أستبقيها . . قلت :

ـ أنا مستعد . . ولكن كيف ؟

ـ يمكنك أن تحصل على الشهادة الإعدادية بنظام المنازل .

ـ والكتب .

ـ سأحضرها لك

وقبل أن أقول لها : متى ؟

قالت : الآن سأبعث إليك ببعض الكتب مع أمجد

غابت عنى . . جلست فى مكانى غير قادر على الحركة . . كان عقلى يعمل بحماس وكنت فى الوقت ذاته أحس أنى مجرد جثة ملقاة بلا حراك .

كانت هناك سحلية تراقبنى ولما اكتشفت أنى متنبه لها هربت . جاءنى أمجد بالكتب ومعها قلم مسنون وكراسة مسطرة . بسطتها كلها على الأرض

وركبت فوقها أتأملها بنهم . فوجئت بى أقرأ كتب الإعدادى وأفهمها ، قليل جداً ما صعب على ، مع ذلك مضيت فى القراءة بلا رحمة لقد جاءت الكتب والمذاكرة بالضبط فى الوقت الذى أحاول فيه التخلص من الماضى ، وخلق ذكريات جديدة ومستقبل بديل . . بقيت أقرأ وأقرأ . . لا أحس إلا بالسطور فقط ونهرها يجرى بلا توقف ويصب فى ، أتبدل كل دقيقة وتتجدد دمائى وتتقلب الحياة فىَّ وأصحو كلما أوغل الليل ، عند الصباح كانت البذرة تتنهد تحت التربة . تتفتح فى رفق وتستوعب نور العالم .

●

فنـــارة

مضى أبى يحدثنى دون أن أطلب منه ذلك عن آخر أيام فنارة معه ، وكيف أنها كانت بنت حلال مصفى ، وكنت أنا فى عالم آخر . . لا يخلو من فنارة .

ما إن وقعت عينى عليها حتى تراجعت متأهبا للفرار ، لولا قبضة أبى التى لحقت بى ، هل يمكن أن تكون هذه هى زوجة أبى التى احتلت مكان أمى . . لم أر أمى . . لابد كانت مختلفة .

قميئة للغاية وعلى خدها الأيمن رقعة سوداء بها شعر وعيونها جاحظة ولها سنتان بارزتان . فلماذا أحضرنى إليها ؟ ، هل تصور أنه سيعلمنى الأدب بأن يلقى فى قلبى هذا القدر الهائل من الرعب .

ما أكثر المناسبات التى قال فيها :

ــ أم الدندورمة أفسدتك

يقصد جدتى ، فلم يكن أحد ينادى خالى زناتى باسمه ، الكل كانوا ينادونه : الدندورمة .

كان أبى يطيعها فى كل ما تأمر به ويوافقها على كل ما تفعله حتى لووجدها ربطتنى فى السرير وكسرت على جسدى مكنستين ورجل كرسى . .

كنت وقعت صدفة على حلة اللحم الذى لم نكن نأكله إلا يوم الخميس . اليوم الذى يقبض فيه أبى راتبه الأسبوعى . هجمت طبعا على اللحم فلم أبق له أثراً . . إنها مسألة لا تحتاج إلى تفكير .

عندما جلسنا على الطبلية قامت هى لتحضر حلة اللحم من فوق الدولاب فإذا الحلة كالريشة فى يدها . وقع قلبها فى رجليها وأنا استرق إليها النظرات لأعرف ما سيحدث . طردت الهواجس والشكوك التى ساورتها ، ورفعت الغطاء وحدقت فى الحلة بكل اتساع عينيها ثم فقعت بالصوت وتجمع الأهل والجيران وهم يحسبون أن أبى لابد قد مات . . لكنه كان يجلس أمام الطبلية ولم يمت بعد ، ظلت هى تفقع الصوت الحيانى تلو الصوت ، وأنا لازلت أجلس فى منتهى الثبات لا أعرف ماذا يجرى لهذه المرأة التى تحب الفضيحة ؟

أخيراً أدرك الناس أن اللحمة هى التى ماتت ودفنت أيضا ، فضربوا كفاً بكف وبعضهم ضحك ساخراً وتسللوا عائدين . . قالت لأبى :

ــ ليس غيره . . مقصوف الرقبة داهوه

ــ غريب . . لا

ــ عد غنمك يا جحا واحدة واقفة وواحدة نايمة . . كلنا هنا ثلاثة فمن فعلها ؟ . . يمكن أنا ياسى المظ !

سألنى أبى فاقسمت له بالمصحف الشريف والرب العظيم وبالنعمة أيضا أنى لا أعرف مكان اللحم ولم آكل اللحم

تسلل خارجا إلى المقهى ليشرب نفسين معسل كعادته ، وسرعان ما أغلقت فنارة الباب وهجمت على . . جريت منها طويلا ، لكن الغل الذى كان يزيد من بشاعة وجهها أوقعنى أخيراً فى يدها .

بعد أن عاد أبى شكوت له فقال :

ــ تحمَّلْها يا ابنى ــ لأنها وهى صغيرة كان عضها كلب .

سألته برغم ألمى : وراحت الاستبالية .

قال : لا . . أهلها قالوا لا داعى لذلك لأن الكلب مات .

وأغرقنا معا فى الضحك . . حتى . . ظهرت وحدقت فينا ، فتذكرت ألمى وقال لها أبى : هاتى الجوزة .

لما حملت زوجة أبى للمرة الأولى فقدت جنينها وأصابتها حالة هياج فكانت تلقى بأى شىء فى وجه من يحدثها . . كانت وسيلتها للتعبير التحديق الشديد ثم إلقاء ما تطوله يدها ، حتى حملت مرة ثانية . وضعت بنتا أسمتها كايداهم .

رغم أنى كنت أحب كايداهم لشقاوتها وخفة دمها وبحكم وجودها معى فى بيت واحد ، لكن فنارة كانت تبحث بكل وسيلة عن مبرر لايذائى وكان كل مرادها منعى من الذهاب للمدرسة . . وقد نجحت .

لما حملت للمرة الثالثة وضعت ولدا أسمته حنفى زادت معاملتها سوءا ويمكن القول بكل اطمئنان إنها كانت تحاول التخلص منى ، حتى إنها كانت إذا غلب حمارها تعطينى نصف ريال وتقول لى : إذهب إلى عمك يس .

أمد يدى وآخذ نصف الريال ، فقد كان كل همى القبض عليه وليحدث بعد ذلك ما يحدث ، وسرعان ما تلحق بأى قطعة منى فتغرز فيها أظافرها وتقول :

ـ أنت أخذت نصف ريال . . يعنى لو رجعت سأحشى بك الفرن .

أهز رأسى موافقا على شرطها وأذهب إلى طنطا حيث يقيم هناك عمى يس السروجى وعمى يونس الكمسارى . . أظل أقفز طيلة النهار فى الدلتا وهى تجرى ، وأنزل منها وهى تجرى ثم أعود آخر النهار .

وما أن تراني حتى تشد شعرها وتلطم خديها وتقول لأبي :

ــ خد الولد لعمه يتعلم صنعة .

ــ الولد صغير .

ــ ابنك يخلّف يا ألمظ .

ويتبعثر أبي من الضحك والسعادة لأن ابنه في هذه السن يمكن أن ينجب ، وبعد لحظات يغلبه النوم .

قال أبي المكور على نفسه ، مجرد جلباب فوق العظام يعلوها رأس نصفه أصلع والباقي أبيض وبقع بنية اللون صغيرة تنتشر في كل وجهه ، وفم خلا تماما من الأسنان :

ــ لو شاطر تعرف من يكون .

أشار إلى عجوز مثله ، نحيل يلبس بدلة صفراء كالحة ولم تسلم من الرقع والمزق المخيطة بألوان غير مناسبة . . لم أستطع التعرف عليه وأصابني قليل من الحرج فقلت :

ــ مر زمن طويل يا عم ألمظ .

فأسرع يقول : عمك يونس . قلت : عم يونس السروجي . لا السروجي اسمه يس ، وعرفت أنه مات . . سلمت عليه وأنا أحاول تذكر أيام عم يونس الكمساري .

حاول أن يقف فكاد يقع وأمسكته ملحا في بقائه جالسا . . ذكرني بشقاوتي فتذكرت شقاوته . . تضاءل جدا بعد أن كان لفرط طوله لا يدخل

قطار الدلتا الذى يشبه الترام ، وكان يقطع التذاكر وهو على السلم . . قدم لى أولاده .

حكى لى تفاصيل كثيرة عن كل من ينتمون إليه وكل من خرجوا من صلبه . . تفاصيل مرهقة وبلا أى معنى ، بعضها للأسف مقزز . . كلهم ساروا فى طريق موحل وغبى ومعظمهم هبط عن المستوى العام للعائلة الكريمة ، وسلك مسالك طائشة أو رضى بالتافه من الأمور أو سقط فى الغواية .

عندما لمحتنى فنارة فى إحدى المرات جالسا مع بنت جارتنا على ناصية الشارع قبل المغرب ألعب لها فى شعرها الطويل الجميل الحنون وكنت مغرما بهذه المتعة ، والبنت تحكى لى عن أمها وأخواتها وأحلامها وأنا سارح فى ملكوتى . . شعرها الناعم . . أتأمله بعينى وتجوس خلاله أصابعى وأقربه من أنفى إلى أن نفاجأ بالمساء الذى دخل علينا دون أن يزعجنا فنفترق .

قالت فنارة :

ــ طالع لعمك

ــ عمى مين ؟

ــ عمك يونس

ــ ماله

ــ يعنى ما انتش عارف ؟

ــ مش عارف .

رغم سنى الصغيرة فقد حكت لى عن عمى يونس الذى ينام كل ليلة مع امرأة شكل . وأنه دار على كل نسوان البلد وسيرته على كل لسان ، وليس

هناك رجل فى البر كله يرمى عليه السلام وأنه أكل ضربا يهد مائة رجل . تكسرت دماغه ثلاث مرات ودخل ذراعاه فى الجبس مرتين ودخل السجن مرتين وفُصِل من العمل عدة مرات وفى كل مرة يفصل من العمل كان يجد امرأة تصرف عليه ، ولكنه بعد أن تزوج البنت التى أحبته استقام ، لأن أهلها لسوء حظه قتلة محترفون ، وكانوا يعرفون الكثير عنه ، وعندما هموا باصطياده لمنعه عن ابنتهم قالت لهم أريد الزواج به وإلا أشعلت النار فى نفسى وأعمل لكم فضيحة ، فوافقوا وجروه للزواج بها ، وتوقف بعد أن أحس بحصارهم وعلمه أنهم لن يغفلوا عنه ولأنهم منتشرون فى كل مكان . . كبارا وصغارا .

الحق أن كل ما أعرفه عن عمى يونس لم تقله فنارة ، ولكنها قالت بعض العبارات وأكملت أنا هذه المعلومات من كلامها مع أبى ، واسمعها يحكيان لبعض ويتعاركان وأنا اتظاهر بالنوم . . مسكين عمى يونس أفضل ما يتعين علىَّ عمله هو استبقاؤه بعد عودة الحافلة بركابها إلى بركة السبع والاستماع إلى تجربته وتسجيلها على شرائط . . لا . . الأحق منه عمى الضخم ذو اللحية الطويلة . . الدرويش .

قال أبى : قصدك عمك المتولى . . الله يرحمه مات فى المسجد .

كان عمى المتولى منذ ولد يحب القرآن والجنازات والجلوس فى سرادقات العزاء ، ولا يبرح المساجد ويحافظ على الصلوات ، ولا يتوقف عن التسبيح والتطلع إلى السماء والمشى فى الخلوات . لا يعلم أحد عن طعامه ، ولا شرابه شيئا ، بل لا يعمل أحد حسابه لأنه يرزق بصورة لا يعرفها أحد .

كنت أتمنى رؤيته ، ولمّاَ أقابله أتحدث إليه ، فلا يرد ولكن يمسح على رأسى ويمضى .

كانت عيناه تبتسمان ، أما فمه فلا . ودائما يذكر الله ويردد كلمات لا أعرفها ثم تعود أن يمسك فى يده عصا غليظة هى فرع من شجرة ، وطال عوده حتى أصبح أطول من عمى يس ، ولما قدم حذاؤه وتهرأ ألقاه وسار حافيا . . طالت لحيته وشعر رأسه وشاربه . . ولم يعد يأتى إلى البيت الذى كان يقيم فيه جدى ولم يبق فيه غير عمى رشاد ، وسعى الكل لإعادة المتولى ، لكنه أبى .

لم أعد أعرف عنه شيئا ولا أذكر إلا لحيته المخيفة وعينيه الواسعتين اللتين لم أر فى حياتى مثلهما ، كان ينظر إلى أى شخص مهما كانت مكانته فيتوقف عن الحديث حتى يتم المتولى قوله وفعله ثم يمضى . ويبقى هو بذاكرتى حتى بعد أن كبرت وهربت من البلد . . سؤالا بلا إجابة . . فيم يفكر وماذا يقول ويردد ، وماذا يريد ؟ ولماذا هو مختلف ، ولماذا كان الأطفال يهربون منه وبعض الناس يسخر منه ويهزأ ، أما أهله فقد نفضوا منه أيديهم وكان يسيرا عليهم أن يتنازلوا عنه للشوارع . . حتى مات . . لكن من الذى يمكن أن يحدثنى عنه حديث الصدق والحقيقة . . كل هؤلاء غير مؤهلين ، ولن يستطيع أحد أن يفعل ذلك إلا هو .

ظللت أراه بخيالى لعدة سنوات حتى وصلت مزرعة الحسيمى لكن ذات العيون الخضراء والوجه القمحى والقلب الذى يحب كل شىء فى العالم فتحت أمامى باب المستقبل بأن دفعتنى للدراسة . . أقبلت عليها بيدى وأسنانى وكل أعصابى . سهرت الليالى أقرأ فى أى شىء ألقاه أمامى أدركت

فجأة وأنا وحدى فى عز الليل أن الفارق بينى وبينها ليس أنها فى مكانة السيد وأنا الخادم ولا أنها الغنية وأنا الفقير ، ولكنه التعليم . المسافة سببها فى الحقيقة الدراسة التى تخلق فروقا غيرها كثيرة ، وتتزايد مع كل يوم وتنمو كأنما هى شجرة تكبر وتوسع الفجوة .

رحب عم نبوى بوجودى لأنى أصبحت أسهر بدلا منه . شاخ وكلت عيناه ويحب أن ينام أو يذهب لأولاده فى القرية ، كل ساعة كنت ألف لفة حول المزرعة وأكح ، وعلمت عم نبوى أن يقوم بزيارة العجول إذا أنا خطفت لى من النوم ساعتين العصر لأن الليل كان للمذاكرة التى لم تمنعنى عن عبد الجبار ، فقد كانت مواويله أنسى وقوت قلبى الجائع أبدا والظامىء . . غير المستقر .

قرب الفجر كان الأمر يستلزم راكية نار عالية تدفئنى بينما الندى ينزل فوق كل شىء . . قطرات فضية باردة ، تلمع فى الظلمة الشفيفة وبعد أن تكسو كل الأشجار والبيوت والطرق تتعلق بالهواء وتفوح رائحة الندى الغامض . . وتتسلل إلى كل مكان . . تستقر فوق الأجفان والآذان فتثقل الأجساد وتسقط فى آبار النوم العميق .

أجلس أمام النار وأراها ماثلة فى الجمر تبتسم ابتسامة جذابة وتقول لى أن الحياة رائعة والناس أيضا ، وأى شىء فى الدنيا مهما كان مزعجا لا تدعه يستلب روحك المتألقة بالحب والفرح . . عندما يحضر عم نبوى ليمد يديه فى النار يتباعد الوجه العنبرى الذى يجمع بين التوهج والنعومة . معادلتك صعبة طول عمرك يا ابن المظ . .

تطلعت إلى السماء فوجدتها صفحة معتمة منقوشة بقلوب صغيرة مشتعلة تعلقت بها تنتظر من يبالى . . قل يا عبد الجبار .

●

لما بدأ العام الدراسى كانت تذهب إلى مدرسة البنات الثانوية فى طوخ على بعد عدة كيلو مترات . . وكان عم نبوى يوصلها بالكارته ، طلبت أنا توصيلها . . عرضت الموضوع على أمها فوافقت . كل شىء عندها بحساب ولباقة . . مرتب ومتدرج . . كل شىء واضح ومحدد الملامح .

كنت رغم جرأتى مقيدا وأنا معها . . عفريتا فى قمقم ، ومع أنى كنت أريد أن ألتهمها التهاما فقد كان هناك ما يشبه السور الوهمى حولها يمنعنى من الاقتراب ، حتى لسانى لا يستطيع أن يطلق عليها جسارته وينقل إليها رغبتى المتأججة .

أخذت على نفسها عهداً بأن تعلمنى الإنجليزية ووفت بعهدها . . لاحظت حفظى السريع للكلمات وحلى الصحيح للتمرينات ولم تبخل على بكلمات الاستحسان .

ــ ما دمت بهذه القدرة لماذا اذن تركت المدرسة ؟

ــ الخلاف الذى نشأ بين أبى وأمى

ــ هل كان أبوك قاسيا

ــ بالعكس . . كان موظفا كبيرا وغنيا ومهذبا جداً ، لكنه يغار بشدة . . فكانت المشكلات تقريبا يومية حتى ضجت أمى وطلبت الطلاق .

(هكذا قال عن أسرته أحد أطفال الملجأ)

ــ وهل وافق ؟

ـ رفض من أجلى . . لأنه كان يحبنى جدا ويلبى لى كل رغباتى . . ولكنها أصرت .

ـ خسارة . .

ـ ذهبت مع أبى وبقيت أختى مع أمى ، ثم تـزوج أبى ولم تعجبنى زوجته فتركت البيت منذ ثلاث سنوات فقط .

ـ وكيف عشت ؟

ـ عمى مدير بنك القاهرة ،وخالى صاحب معرض سيارات ولى عم صاحب مصنع زجاج فى شبرا الخيمة وكل منهم كان يعطينى ما أشاء

(هكذا قال فتى الأحداث) .

ـ ألم يحاول إعادتك لأبيك .؟

ـ حاولوا ولكنى رفضت تماما .

ـ ولماذا تعمل هنا إذن ؟

ـ ألا تريديننى هنا ؟

ـ لا أقصد .

ـ أنا أقصد وأريد إجابة .

ـ أنت . . أنت حر . . أنا لا . . أنا لا أقول لك ابق أو اذهب

ـ ولكنى لا أريد أن أذهب .

ـ لماذا ؟

ماذا أقول لها وقد فاجأنى سؤ ا لها رغم بساطته .

ـ أنا ارتحت جدا هنا بينكم .

ـ ولكن هل ستبقى هنا إلى الأبد . . إلى نهاية عمرك . . أقصد هل سيكون هنا مستقبلك ؟

ـ ولماذا لا يكون . . المستقبل المشرق حيث تكون السعادة والراحة .

ـ لا . . لا أظن .

ـ ما رأيك ؟

ـ لا بد من صعود الانسان إلى أعلى .

ـ كيف ؟

ـ بالعلم .

ـ ألن يبعدنا العلم عمن نحب ؟

ـ ماذا ؟ ما دخل هذا بذاك ؟

ضحكت ضحكة ساحرة ومن القلب ترقرقت وزغردت ، ودارت بي في الكـون كله . . صوبت إلى عينيهـا انظراتي . . كـان مثيرا للدهشـة جـدل العيون . . كففت عن الكلام . . وعن الكلام كفّت . .

ماذا أفعل الآن وماذا أقول . . أنا مؤكد شخص آخـر . . انخلعت يدى منى فجأة وطارت . انقضت على فراشة مزينة بأجمل ما رأت عينى . .

أغلقت عليها قبضتى ، وهى بداخلها متوترة تبحث عن الضوء وباب الانطلاق .

تتحرك أصابعى بمهارة لتفتح لها باب الخروج . خروج رأسها فقط ، تمسك أصابعى جناحيها ، أبسطها على كفى أمام مشيـرة فتشهق قائلة : . . حاسب عليها .

فأقول لها : محاسب على الآخر .

أترك لها المسافة بين قلبى وكلامى ، لعلها تفهم أو تحس ، وربما أحظى بذلك كله ، لكنها تأبى وتكبح .

دنوت منها بأنفاسى ولاحظت كتفها العارى فاقتربت أكثر وقبلته فاستنفرت وأسرعت إلى الاختفاء .. أخذت أستعيد لذة لحمها المعطره ولكن غضبها عصف بهذه اللحظات .

تباعدت عنى ففهمت أنها تعاقبنى حتى لا أعود ، اعتذرت لها فسامحتنى ولم أكن أستطيع احتمال البعاد القاتل ، لقد أصبحت معلقا بها من كل النواحى . . قلبى وعقلى..حاضرى ومستقبلى . . نومى وصحوى . كل شىء أسكنته يديها ، ولم يعد لى إلا ما تصرح به ، وهى نبيلة وكريمة . . أبدا لا تسىء ولا تحقد .

عادت المياه إلى مجاريها وقد نويت ألا أكف عن انتهاز أى فرصة أخرى لتقبيل الذراع الأخرى حتى لا تغضب ولكن بعد أن تهدأ العاصفة . . وقد حدث .

تفجرت فى صدرى عيون حب هائلة العمق ، جعلتنى ويا للغرابة دفعة واحدة كبيرا وواعيا بما حولى ، وغير واع بشىء فى الوقت نفسه.مسح الحب على قلبى الذى تعذب وكره ، فإذا هو ينسى كل مراراته ويحب الإنسان والحيوان ويشعر برغبة أكيدة فى أن يلهو كطفل .

جحيم لذيذ من الحب يصطليه وحيداً قلبى المعذب . . إنى هنا .

لن تحنو السماء على وحدها . . لابد أن أعد لها سلما وأجذبها عليه كى تدنو وتدنو وتطل برأسها فى كهف قلبى وتكتشف النور . . ليس قلبى عنيداً كرأسى وليس صلبا كيدى وليس جسورا كخطاى وليس ملوثا بالروث كشعرى الخفيف أو ملابسى . . قلبى مخلوق آخر . . من الندى جمعته النجوم الحالمة . . قلبى شفة مشبوبة تهفو لشفة مشبوبة .

لماذا يحضرنى الآن ما قالته جدتى عن الدجاجة ، التى رأت فى نومها أنها أصبحت نسرا يحلق ، فصعدت الجبل وطارت . . لكنها . .

كان علىّ أن أبذل جهدى .

لإرضاء والدىْ مشيرة ليستمر بقائى بالقرب من مشيرة وأتمكن من الدراسة ، وبلغت عند الحاجة مكانة طيبة وأصبحت تنادينى قائلة : يا بنى

خصصت لى - لابد بتشجيع مشيرة - وجبة غذاء يومية من نفس طعامهم وشعرت تدريجيا بطعم الأسرة وأحضانها الدافئة ، مع الحب والعلم والهدف الذى بدأ يتشكل . . الحوار السلمى الذى بدأ يدور بينى وبين الحياة . العمل والمكسب الذى ادخره والاستقرار الجميل بعيدا عن الشرطة والهروب والعراء والملجأ والأحداث والتشرد والطرد .

فوق كل ذلك ذات العيون الخضراء وأحلام صغيرة تراودنى وتمسح جبينى وتشجعنى بالنهار وتقلبنى على فراشها الناعم إبان نوم لذيذ ، وفى الصباح ألتقى بأحبائى العجول ، نظرة الود والامتنان فى عيونها وأراها وهى تكبر ويفرح لها قلبى ويفرح معى المهندس منير الوسيم ويربت على ظهرى عندما يرى أرضها نظيفة ورائحتها طيبة ، عندما يرانى وأنا أطل فى أسنانها وأفحص مؤخرتها بحثا عن الحشرات أو الالتهابات ، أراقب لون روثها وأحلق فى آذانها وحوافرها . . يقول المهندس منير :

ــ برافو يا غريب . . أنت ولا البيطرى

يتابع معى سعيدا إنتاج الألبان وهو يزداد كل يوم ويغرق الأسرة ويباع الباقى للمصانع القريبة .

ما أجمل كلمات الحاجة عندما تقول :

ـ هذا الولد منذ جاء زاد الخير .

ما عاد البيت يخلو من السمن ولا اللبن أو الجبن والفطير والحلوى البلدى والافرنجى منذ توفر اللبن . . استطاعوا اعداد وجبات منه مثل الكشك والرز باللبن والرز المعمر والبتاو والقرص والبليلة .

ما عاد المهندس منير يسافر للقاهرة كثيرا كما كان يفعل الا لـزيارة ابنتيه . . وفى إحدى المرات سافر الجميع إلى القاهرة للعزاء فى وفاة حماة ابنته أم الطيار تسللت دون علم النبوى إلى الشقة المغلقة . . درت فيها جميعا ، وكان يسيرا أن أصل إلى حجرتها وأتأملها ركنا ركنا وقطعة قطعة . . أشم ملابسها وسريرها وأتصورها وهى عارية تنظر فى المرآة ، فأنظر فى المرآة علّى أجد صورتها هناك . . نمت على سريرها وعانقت وسادتها . . فتحت مكتبها . . فتشته كله بحثا عن أى ورقة عليها اسمى فلم أجد أى اسم غير اسمها على الكتب والكراسات . . أخيرا وجدت كراسا عريضا يمتلىءبالرسوم . . ورود وقلوب تنزف ، عرائس وأشجار وعصافير وثعابين جميلة تلتف حول الجميع . . تلتف وتتلوى وتنتقل من صفحة إلى صفحة وحولها القلوب والعيون المفتوحة بلا فزع ، وأخيرا بلغت الثعابين النهاية . . توقفت عند أقدام رجل وسيم ـ يشبهنى لولا أن له شارب أكبر من شاربى وليس له طابع حسن مثل طابعى ، لكن لابد أنه . . أنا . . مؤكد أنا . . حملت بعض القصص التى كانت تقرؤها . . كنت أريد أن أعرف فيما تفكر . وها أنذا قليلا نفذت داخل قشرة الرأس .

لم يبهرنى فى الشقة غير سجادة ضخمة تغطى حائطا بأكمله ، لوحة حولها إطار من ورد وفى الوسط معركة بين ثلاثة جمال تملأ المساحة كلها وقد

التف الذيل على الرأس ، والتوت الرقاب وتداخلت السيقان وارتطم السنام بالبطن . . تراقصت على المعركة الالـوان واستنفرت الأعصـاب وارتجفت الجلود ، ولم تسل الدماء ولا تزال المعركة قائمة ليل نهار .

تأملت البهاء والصراع الجميل وسرى فى بدنى شعور باللذة وكأن هذه الجمال تتبادل العناق والحب . . حاولت أن أخلص الجمال من بعضها ، وأحمل أعضاءها خارج الصورة متفرقة ثم أعيدها إلى صاحبها الأصيل ، فلم أستطع .

مضيت وقـد بلغت صبـوتى حـدود شهـوتى . . ذهبت مبـاشـرة إلى فرستها . حدثتها عنها وربتُّ على ظهرها . . ومسحت عـلى بطنهـا وعلى مؤخرتها الناعمة . . قبلتها . . عانقتها . . تنسمت منها رائحـة المسافـرة واقشعر بدنى . . مرت يدى عـلى شعر رقبتهـا المرسـل . . عانقتهـا بشدة وارتجفت ـ صعدت عليها ونمت فوقها . ضغطت فخذى حول بطنهـا . . بقوة ضغطت . . تراجعت للخلف قليلا . . ركبت مؤخـرتها . . رفعت جلبابى والتصقت بمؤخرتها الناعمة المستديرة . . حفرت الفـرسة الأرض بحوافرها وزامت وأنا مشبوب ومشتعل . أنـا بداخلهـا أتقلب كالمحمـوم تطول يدى شعر رقبتها ويدى الأخرى تدلك بطنها . . وهى تحفر كأنها تريد أن تسقطنى لكن شيئاً غامضا يمنعها . . انتفض جسمى ثم سكن وظللت فوقها لحظات . . ثم تدحرجت إلى الأرض وبقيت عليها لحظات . . حولت رأسها نحوى . . تطلعت إليها . . لمحت نظرات العطف والمواساة فى عينيها كانت عيناها . . خضراوين ووجهها عنبرى أدنت منى فمها . . اضطجعت ورفعت رأسى . . قبلتها وأبقت فمها على فمى إلى أن تنفست بشدة فعدت إلى الأرض . .

تمـددت . . بعد قليـل تناهت إلى أنفى رائحـة الـروث فنهضت إلى النهر . . قضيت الليل فى القراءة ، قراءة روايات مشيرة . . وأنا أفكر فى الفرسة الجميلة . قلبى المثقل وقلبك المرفرف . . يتقدمان صـوب بعض ببطء شديد لا يلمسه أحد ولا حتى أنت يا من تتوجسين منى .

أراهمـا يتقدمـان أبطأ من عقـارب الساعـة ، لكنهما يـدنوان فى ثقـة ويشتبكان ويتداخلان . يمتزجان .

ها هما يغدوان قلبا واحدا مشبوبا إلى درجة الاضطراب .

فضعى صدرك الدافىء على القلب الجديد
يسرى فيه الأمان والرضا ،

للدنيا كلها تشرق الشمس ، وللناس جميعا تثمر الأشجار وتغرد الأطيار وعندما يجىء الليل . يكون لى وحدى .

ويعانى الوحشة مصباحى اليتيم ذو الضوء الباهت .

●

نفحـــات عائليـــة

همس أبى فى أذنى : رُحْ بنفسك سلّم على عمك رشاد .

فتشت فى الوجوه لكنى لم أستطع أن أتحقق منه ... ولم أستطع حتى أن أستعيد ملامحه . . نحن نعد الأيام وهى أيضا تعدنا . أشار أبى عليه . . قبل أن أصل قام . . رجل طويل يميز وجهه حاجبان أبيضان كثيفـان وشارب أبيض كث وعلى رأسه طاقية وحولها لاسة سوداء .

سلّم على فحطم عظام يدى وهرس لحمها . . فوجئت به وهو رجل يبدو على الأقل فى السبعين . . داريت الألم الذى تسرب من يدى إلى كل جسمى . . هل هذا عمى رشاد . . رشاد الجزار ؟ .

ـ أهلا يا عمى .

ـ أهلا يا بنى .

ـ نورت مصر .

ـ منورة بك يا ولدى .

كنت أود لو أقف أمامه طويلا . . لكنى لم أجد ما أقوله وكان هو قطعة من الحجر صامتة وصلدة . . عدت إلى جوار أبى .

أذكر أنه كان جزارا متنقلا . وضع فى وسط السوق ترابيزة قديمة تجلس أمامها زوجته تبيع الفشة والطحال ، الكرشة ورؤوس وسيقان البهائم وباقى الأحشاء التى لا يبيعها الجزارون ، كان يلتقطها إما سرقة وإما عمولة عن مساعدة يقدمها للجزارين فى السلخانة ، وقد يحصل على فروة أو جلود أو قرون . . عيشة خطف فى خطف .

قبل أن أحضر إلى القاهرة سمعت أنه تعارك مع أحد الجزارين واستخدم معه الطريقة الثقيلة المشهورة عنه ، ضرب الرأس ، ورأسه حجر

وكل من يتشاجر معه لابد أن يعمل حسابه بحيث لا تصل إليه رأس المعلم رشاد ، أما من تلحق به فقل عليه يا رحمن يا رحيم ، هذا ما حدث للجزار . . سقط ولم يقم مرة أخرى ، وما أسرع خروج السر الإلهى . واقتيد عمى للسجن .

لم تكن أسرته ـ هكذا أراد الله ـ بحاجة إليه فاستمرت زوجته أمام الترابيزة وأمامها أحشاء البهائم وأولادها الستة الذين جاءوا للعالم أو للسوق بالتحديد خلال عشرة أعوام زواج .

حكى لى أبى أن أولاد عمى وأكبرهم لا يتجاوز تسعة أعوام شرعوا فى القيام بمهمة الأب فى سرقة الأحشاء ، والتسكع فى السوق ، وطلب المساعدة من الجزارين .

الشىء الغريب أن زوجته الصبية التى لم تتجاوز الخامسة والعشرين ظلت على نفس الترابيزة تبيع هذه المخلفات حتى استطاعت أن تشترى دكانا ، وقفت فيه بنفسها ومعها أحد الجزارين لمساعدتها ولبست الذهب بعد

أن وضعت القرش على القرش وقالت :

ـ شعرة على شعرة تبقى دقن .

كبر الأولاد وتسلموا الدكان وفتحوا غيره إلى أن خرج رشاد من السجن منذ خمس سنوات فقط . . نعم قضى نحو ثلاثين سنة . . فقد شاء له حظه أن يجدد فترة سجنه وهو على وشك الخروج بعد أن لحقت رأسه بأحد الحراس ، فسقط ولم يستطع النطق أو القيام .

يقول أبي :

ـ جن جنون عمك ـ هكذا حكى لى بنفسه - وضرب رأسه فى الحائط ، ضربة قوية حتى فتحت وسالت الدماء ، لكنها عادت كما كانت دون أن يحدث لها شىء . .

لم تتخلف عنه زوجته فى أى يوم جمعة وهو يوم الزيارة ، تجلس إليه وتحكى له كل ما يجرى . . تأكل معه أفضل قطعة فى البهيمة . الجوهرة . المخ . الرأس . الكبدة السيقان . بيض العجل . . مع أنه سجين لم تطلب الطلاق ولم تفكر فيه وهى تعلم أن مشواره سيطول وأنها صغيرة وجميلة ومرغوبة .

سلمت على زوجة عمى وسألتها عن أحوالها والسر فى هذه العلاقة قالت لقد تزوجته وهى فى الخامسة عشرة . . كانت طفلة وأحبته جدا . قضت معه عشرة أعوام . . رأت فيها أحلى أيام حياتها وأيقنت أن ما عداه من الرجال ليسوا إلا حريما فى ثياب رجال .

لم تسمح لأحد أن يلمسها مع كثرة الطامعين . . شكلها الآن تغير تماما . . لكننى أذكر أنها كانت بيضاء وطرية ، عيناها سوداوان جداً وواسعتان

كما عيني البقرة وكانت دائماً مشمرة عن ذراعيها البيضاوين وتربط رأسها بمنديل أسود ، وفى فمها سنة ذهب تبرق كلما فتحت فمها والآن كل أسنانها ذهب .

سألت أبى عن عمى يس وأولاده .

نظر إلى طويلا ثم تنهد وقال :

ـ الله يرحمه

ـ مات !

ـ مقتولا

تمهل أبى قليلا ثم قال :

ـ لقد قتله ابنه الذى يجلس هناك عند النافذة .

كدت أرفع صوتى بالدهشة ، لكنى تماسكت .

ـ ولماذا قتله ؟

ـ عمك كسب كثيرا لكنه كان جلدة ، لا يحب فى الدنيا إلا ماله . . وحبيب ماله . حبيب ماله وعدو ماله عدو ماله

ـ وماذا حدث لابنه ؟

ـ نسيبه قال لأخته قولى واحد حرامى هو الذى فعلها وهرب ومرت الحكاية بسلام .

أشار لى أبى على ابن عمى يس . لم أهتم أن أسلم عليه .

شرب الجميع وأكلوا الشيكولاته ،

لهم فندقا أربعة نجوم إقامة كاملة ، وسرعان ما أتم الإجراءات وأرسل

معهم أحد مساعديه ليشرف على راحتهم ومرافقتهم فى برنامج نزهة قاهرية لمدة ثلاثة أيام ، على أن يصحبهم فى الغد ليشترى لهم جميعا ملابس جديدة خارجية وداخلية وأحذية ، وأن يستأجر لهم حافلة جديدة لاستعمالها مدة الإقامة .

اتفقت معهم على أن أزورهم مرة واحدة وأخيرة قبل سفرهم لنتناول طعامنا معا ، ثم ينطلقوا عائدين إلى بركة السبع وطنطا .

قال لى مرة عمى يس إن أبى هـو أصغر أبنـاء حامـد الدلـدول وهو أكبرهم . كان جدى معجبا بالمطربة ألمظ ، وكان يبدد معظم ما يكسبه من

سوق البهائم فى سفره إلى القاهرة وحضور حفلاتها ، وفى إحدى الليالى التى قضاها فى القاهرة ، عاد فإذا جدتى توشك على الوضع وكانت العائلة كلها على ثقة زائدة بأن المولود لابد أن يكون بنتا بعد أربعة ذكور ، وكان الشيخ عثمان المناديلى قد أكد ذلك . . فاقسم جدى على تسمية المولود ألمظ . . وجاء المولود ذكرا وسمى بالضبط كما قال جدى . .

أنا شخصيا وقعت فى حيرة . . ما هو اسمى الذى أقبله ؟ . لقد كنت أخفى الدلدول فى الملجأ حتى تسرب عن طريق أحد المشرفين الذى حاولت مرة أن أسخر منه بعد أن جذب أذنى واتهمنى بالغباء فإذا به يقول . بس يا دلدول .

بعد الجامعة وعند عملى فكرت فى تغيير اسمى كله وهو « الغريب ألمظ حامد الدلدول » . . اسم عبارة عن جريمة اشتركت فيها أجيال متعاقبة حتى أبى الذى سمانى « الغريب » وقيل إنه اختار هذا الإسم عندما توفيت أمى ،

وهو يقصد أن يكون اسمى « وحيد » أو من فقد الحنان والرعاية الحقيقية وسوف يعيش غريبا .

اكتفيت باسمين اثنين هما :

« الغريب ألمظ » .

●

الليـــلة الأخيــرة

كنت أركب حصانا أبيض ، ذيله كثيف طويل ، إنـطلق الحصان فى سرعه بالغة وتزايدت هذه السرعة حتى علا فى السماء وامتد ذيله وراءنا ، والناس من تحتنا تضاءلت حتى اختفت بين الشجر والبيوت المتلاحقة . . السيف الذهبى فى يدى يلمع ، أشق به كل ما يقابلنا فلا نتوقف أبداً .

إذا رفعت السيف إلى أعلى فإن الحصان ينطلق وإذا نكسته فإنه يتوقف فى الحال أو يتمهل . أتأمل ما حولى لحظات وأقطف بعض ثمار الفاكهة . . حبات له وحبات لى ثم نتابع الطيـران ، إلى أن وقعت على بيـوت جميلة وحدائق مزهرة وأطفال صغار يرتدون ملابس ملونـة رائعة ، ولم أكن قـد رأيت أطفالا بهذا الجمال .

نكست السيف فتوقف الحصان . هززت السيف فهبط بى إلى الحديقة بالقرب من الأطفال الذين أسـرعوا نحـوى . مضوا يتأملون ويتعجبون لحالى . . كيف أركب هذا الجواد الأبيض وفى يدى سيف رائع يبرق بينما ملابسى رثة .

نزلت إليهم ، فدنوا منى وبدأ كـل منهم يلمس كل قـطعة فى ثيـابى ويدهش ، ثم يدعو زميله للمشاهدة . . داروا حولى وسرعان ما سحبونى إلى الداخل . ألفيت بـالدار سيـدة سوداء طيبـة الملامـح . عجوز لكنهـا نشيطة . دون كلمة وكأنها كانت تعلم المطلوب منها . خلعت عنى ملابسى وغسلتنى بالماء الدافىء والصابون المعطر ، وجففتنى بفـوطة ملمسهـا ناعم كفرو الأرنب . تمسكت بها فوق وجهى من فرط الراحة التى أشـاعتها فى نفسى رائحتهـا المعطرة . ألبستنى مثـل الأولاد . انطلقـوا بى يجـرون إلى الحديقة . . حاولوا معى كى أحفظ ألعابهم وأناشيدهم ، فمضيت أشاركهم فيما هم فيه وقد نسيت الدنيا والحصان وكل شىء ، وإذا بيد تهزنى بعنف وأسمع صوتها يدق رأسى .

ــ قم يا منيِّل هات لتر جاز .

لم أستطع القيام . . استولى علىَّ الذهول الفاجع . . ما هذه المسامير التى اندقت فى اللحظات الجميلة . . أين الأولاد والورود والفرس النبيل والسيف اللامع . أين الأغـانى والرقص ؟ . عـادت تلكزنى وتسبنى حتى أعادتنى تماما إليها ـ كافحت طويلا حتى فتحت عينى لأرى هذه المخلوقـة التعسة . . فكرت فى كيفية الانتقام من هذه المرأة .

ــ الباجور فاضى وعايزة أسخن لأخوك رضعة .

أخذت العلبة الصفيح والنصف فرنك ، وأول شىء فكرت فيه حتى قبل أن أغسل وجهى هو أن أقذف العلبة فى أول خرابة تقابلنى .

إكتملت الفكرة بعدما شعرت برغبة فى التبول ، ودائما أشعر بذلك فور يقظتى .

أرجأت تنفيذ القرار حتى تبولت فى العلبة أمام باب البيت ، نكاية فى المرأة المجنونة التى حرمتنى من أجمل لحظاتى .

عند الخرابة قذفتها بعزم ما بى ، فطارت وتقلبت فى الفضاء وهى تمطر إلى أن ارتطمت بأحد الجدران وسقطت على الأرض ، وكان المفروض أن تسقط على رأسها .

ساندوتش طعمية ساخنة من عند الحويحى كان ثانى القرارات ، ثم كوب شاى ولم أكن قد شربت شايا منذ فارقت مكاسب ، ولفيت سيجارة من السبارس التى جمعتها من أمام قهوة لاللى المغلقة .

ذهبت وتمددت على كوم رمل أمام مبنى تحت التشطيب إلى أن علت الشمس وشرعت السحالى تخرج لتتشمس ، ثم ظهر العيال فمارسنا ألعابنا ، وكنت أكسب منهم نقودا فى كل مرة نلعب فيها رهان ، سواء فى المقالب أو التنشين بالزلط على عمود النور والاستمتاع برنين الارتطام العالى أو فى الجرى ، أو رمى الحصى ليعبر النهر . . كانت هذه اللعبة متعة حقيقية لا يتقنها إلا القليل ، اختيار الحصوة المسنونة أو الزلطة المبططة وقذفها بطريقة تجعلها تلمس الماء ثم تعلو ، تلمسه وتعلو إلى أن تصل للضفة الأخرى .

بالنقود أدخل السينما وأتفرج على جارى كوبر . . وكل الأفلام إما جارى كوبر أو إسماعيل يس .

عدت قبل الغروب للدار . تجسست عليهم لأعرف إذا كان أبى قد وصل أم لا حتى أجد فى كنفه الحماية ، تأكدت أنه لم يصل بعد ، فرجعت للأولاد .

أصرت سكينة « العرجا » على أن نلعب الأستغماية ، ولابد أن تجرى علينا القرعة لاختيار أول من سيغمض عينيه ، لم تكن تحب « كلوبامية » لأن التحايل فيها سهل ، ولا تميل أيضا إلى حادى بادى وتؤثر فى كل مرة أن تردد أغنيتها التى كان يسعدنا أن نغنيها حتى دون أن نلعب :

أودة ماما مفروشة
فيها عرايس مرصوصة
فيها حصان طوَّح طوَّح
مايخليش حد يروح
غير اخويا ومراته
والناس تحلف بحياته
وحياته تمر حنه
أخد حته واتحنى
وارمى الباقى فى الجنة
وآدى الجنة وآدى النار
وآدى عذابكم يا كفار

أوقعت الملعونة الكلمة الأخيرة علىَّ ، وخرجوا جميعا . . أنا الذى سيربطون عيونه . . تفننوا فى الإختباء والضحك على وهم يقتربون منى ويهمسون ، عندما أقبض عليهم ، أكتشف أنى أمسكت الهواء ، أو وقعت على الأرض ، وهم يغرقون فى الضحك لأنهم لا يريدون أبداً أن تأتى اللحظة التى يحل أحدهم فيها محلى . كأنهم كانوا ينتقمون منى ، لأنى على مدى شهور طويلة لم أقع مرة فى الفخ . ورغم خفتى ومعرفتى بأماكن

اختبائهم فقد فشلت إلى أن همست بالقرب منى سكينة « العرجا » فخمنت كيف ستتصرف . تحولت بسرعة البرق إلى الجهة المقابلة لصوتها ووجدتها هناك فقبضت عليها وتشبثت بفريستى . وقعت فوقها فزحفت على الأرض . لم تكن لتستسلم بسهولة لكنى قبضت على ذيل جلبابها ثم قفزت فوقها وتمكنت منها وهى تفلفص وتقول :

ـ لا يا خويا . . إنت شايف . . لا يا خويا .

كنت فرحا لأنى أمسكتها ولأنها فى حضنى ، ولأنى مغمض العينين ولست حبيس الحيرة . طال رقادى فوقها واحتضانى لها ولم أكن أحسب أنها طرية إلى هذه الدرجة مع أنها سريعة فى الجرى ، وتستطيع أن تغلب العيال وتشيلهم وتقلبهم وإذا أمسكت بشىء لا تتركه أبداً .

جاء الأولاد جميعا وسقطوا فوقى ، وأصبحنا جميعا كومة واحدة فوقها . صرخَت وأبعدْتهم عنى وعنها . لكنها غضبت وأصرت على أن تذهب . . كان اللعب جميلا ، لكنها ذهبت . . تذكرت أبى . . عدت إلى الدار .

خامرنى إحساس بأن فنارة لن تتركنى إذا وقعت عينها على . . ولكن ماذا يمكن أن تفعل أكثر مما فعلت ؟ ولا أظن أبى سيتركها تضربنى أمامه . . لا يهم . . علقة تفوت ولاحد يموت . . بعد ساعة على الأكثر لا أحس بالضرب .

ولكن لماذا لا أقاومها . . يجب ألا أستسلم لها . . سوف أقاومها وأحمل معى زلطاً . . إذا تقدمت منى قذفتها بزلطة تشج رأسها ويسيل دمها .

هل يمكن أن يحدث هذا ؟ . . مضيت أتخيل الدم وهو يسيل منها سائلا أسود ، يتلوى على صدرها ويتمشى على الأرض كالثعبان . . ها هو الثعبان الأسود يجر وراءه فنارة ويخرج بها إلى المقابر يدفنها هناك ويعود .

يدور فى الحجرات يسحب كايداهم ويخرج بها إلى المقابر يدفنها هناك إلى جوار أمها ، يتمشى بكل ثقة . . لا أحد يعترضه يجر حنفى ، ويخرج به إلى المقابر يدفنه إلى جوار أمه وأخته . . ويعود . . أراه قادما من بعيد فأغلق الباب . . أقف وراءه . . أحس بهزة الباب وزلزلة الجدران التى يدفعها ثعبان الدم . . يتمدد أبى والجوزة فى فمه يسحب الدخان ، ينفثه ثم يكح وبعدها يستغرق فى الضحك . . الدنيا أظلمت تماما ولابد أن أبى بالبيت .

ها هو البيت . . لابد أنه عاد من عند زنقنا . . دخلت . . من أى ركن أمسكت بى . لا أعـرف . . سحبتنى إلى حيث كـان السكـين . . أحرقتنى بها . . مُت للحظة ثم بدأت أشعر بسكاكين كثيرة تمزق فى . . الألم الهائل الذى خصص لكل البشر أحسسته ينصب فى جسمى . كنت أحس بسيخ محمى يدخل فى أذنى وآخر فى عينى وثالث فى بطنى ورابـع فى فمى وخامس فى مؤخرتى .

أصرخ بكل أعصـابى وأستغيث ولا مغيث . . لم يكن هناك شخص اسمه أبى . لما عاد ، اشتكت له منى ، قالت إننى ضربت ولدها ، وأوقعته على الأرض عدة مرات على رأسه ، ولم أشتر لها جاز فظل الولد بلا طعام طيلة النهار و . . . و . . .

طلبت إليه أن يعلمنى الأدب وإلا لن تبقى لحظة واحدة فى البيت ، إستجاب أبى فورا للتهديد ، وكأنها بذهابها ستأخذ روحه معها . . أمسكنى

بيده الكبيرة الخشنة والمشققة وقرصنى من أذنى قرصا هينا وهو يجرى على حجرة الفرن بينما هى تراقب طقوس الأدب لتقيس قوة الضرب وفاعليته .

ــ لازم أموتك علشان تبقى تسمع كلام خالتك

ثم توقف ليقول لها :

ــ هاتى المكنسة

ــ انكسرت

لم يعرف كيف كسرت وعلى من ، ولم يسأل

ــ هاتى أى حاجة

أعطته مفراك الخبيزة ، وعندما رأيته وقع قلبى فى قدمى ولابد أن قلب أبى وقع هو الآخر ، فقد رأيت عينيه وهما ينظران بانزعاج إلى المفراك . . لولا أنها فى آخر لحظة قالت :

ــ لا . . هاته خسارة فيه

ألقت المفراك جانبا وأحضرت خرطوم الحمام ، أغلق أبى على وعليه الحجرة وقبل أن يرفع الخرطوم مددت فخذى ليرى الفقاقيع الحمراء تكسو لحمى من لسع السكين . . تماسك وقال :

ــ زَعَّق

نزل بالخرطوم على الجوال الواقف جوار الفرن ، فزعقت واسترحمت لكنه لم يلن لصراخى وظل يضرب الشوال حتى تعب ثم جلس على الشوال وقال :

ــ يا أخى ابقى اسمع كلامها . . أما أنت ابن كلب صحيح

رغم موقف أبى المتواطىء معى ، لكنى لم أرض عنه أبدا . كنت لا أشعر بأبوته ، وأحس أنه يختلف عن الآباء الذين أراهم فى كل مكان .

فى هذه الليلة لم أنم ، انتظرت حتى قال الفجر الله أكبر وأذنت جميع الديوك الواعية بالفجر والمخدوعة ، ثم نفذت قرارى بأن تكون هذه الليلة هى الأخيرة التى تجمعنى بهذه الأسرة العجيبة .

هات موال يا عبد الجبار :

قال عبد الجبار :
جُرح الجرايب أنا مالقيت واصفة له
وجبت أحسن طبيب معرفشى واصفه له
رش المراهم كتير ما فادتش وصفه له
وطبيب لجراح جاب مُر ودانى
أنا قلت يا طبيب دنا اللى حفظت ودانى (ودى . . آنى)
وأقرب الناس لحد الشر ودانى
واللى آذانى ح أروق إزاى وأصفى له

●

« فى الفندق »

حـاول وصفى أن يتصل بـالفندق وبهم ليعـرفوا أننى قـادم . لم يـرد الهاتف ، كانت هناك أصوات غريبة تصدر عنه . . قلت لوصفى :

ـ إياك أن تكون قد أسكنتهم فندقا حقيرا . . أنت تعلم أنهم أقاربى .

قال وصفى :

ـ أعرف ذلك منذ لمسوا باب المكتب وسمعتهم ينادونك . . أما الفندق فسوف تراه بنفسـك . . أربع نجـوم وفى مكان جميـل . . أحدث فنـادق العاصمة .

وصلنا إلى العنوان . . أخذ وصفى يدور حول نفسه فى منطقة خالية إلا من بعض الأطلال . . قال :

ـ لقد كان الفندق هنا .

ضحكت : كان هنا . . هل هو طائرة ورقية أم أنك علمته بسحابة ؟ !

أخيرا وجد مساعده لبيب ملقى عـلى أحد الأرصفـة إلى جوار لافتـة مكتوب عليها « فندق العين الحمـراء » . . عدد من الـرجال يتـألمون . .

وآخرون راقدون وعلى وجوهم دماء . . ومياه كثيرة تغرق المكان .

قبل أن ينطق بحرف حضرت سيارات الإسعاف وأخذت على الفور فى نقل المصابين ، وتعرفت على اثنين من أقاربى بينهم ، لا أذكر اسميهما ولكنى على ثقة أنى رأيتهما بالشقة ضمن الوفد الكبير .

حكى لبيب عن المعارك التى دارت بين أهلى وأصحاب الفندق وأشار إلى مبنى مهدم ومحترق على أنه هو الفندق . فى هذه اللحظة فقدت النطق .

بدأت المشكلة طبقا لشهادة لبيب بأن مزق الصغار الكراسى وكسروا بعض الفازات القيمة . . وكان الكبار ينتقلون بين الموائد والمطبخ حيث أكلوا كل الطعام ثم حملوا الأوانى والكراسى وبعض المقتنيات إلى السيارة الكبيرة التى قدمت من القرون الوسطى ، ولما احتج بعض المسئولين عن الفندق انقضوا عليهم بالضرب وتكسير كل شىء . . ضربوا الجميع حتى الزبائن . . وشرعوا ينقلون من جديد الستائر والسجاجيد والنوافذ وعددا من السائحات ، ثم أشعلوا النار فى الفندق .

ـ وأين هم ؟

ـ يجلسون هناك تحت الشجرة لا يريدون أن يغادروا قبل أن يروك .

قال وصفى :

ـ وهل سيتركهم البوليس ؟ . . مستحيل

علت فجأة أصوات الصفارات التى تطلقها سيارات النجدة . . وكانت لا تزال واقفة سيارات الإطفاء . . أخذ البوليس الجميع .

بعد عدة أيام أمكن إخلاء سبيلهم بعد دفع تعويضات ثقيلة لأصحاب الفندق ، وبعد أن تحركت بهم السيارة الكبيرة التى قدمت بهم من بـركة السبع وعليها الملصقات المتوحشة ، جريت وراءهم وصرخت حتى وقفت السيارة وأنزلتهم جميعا ونزلت فيهم عناقا وتقبيلا . . لست أدرى ما السر فيها أصابنى فقد بكيت . . بكيت بكاء حقيقيا كبكاء الناس ، والنساء تزغـرد والأطفال تهلل . . لم أكن غاضبا منهم . . لقد شعرت بالانزعاج وهم فى السجن وقد ملأوا كل الغرف .

لماذا أشفقت عليهم كل هذه الشفقة ؟ . . لماذا أصبحت فجأة انسانا آخر ازاءهم .

إننى لا أنكر أنهم أهلى رغم ما فيهم من قدرات خاصة منفرة ، وبميزات للقبح والتخلف . . لكنى لم أستطع التحكم فى نفسى .

كان يجب التقاط الصور أمام أطلال الفندق الذى أقاموا فيه تلك الإقامة التاريخية ، لقد التقط لهم لبيب صورا وهم فى الهرم ، وفى حديقة الحيوان حيث أصرت الحيوانات على أخذ بعض الصور التذكارية ، وصورهم فى القلعة وفى النيل ، وأمام السيدة والحسين دون أن يمدوا أيديهم إلا قبلا وأحمد الله أن لبيبا الذى رافقهم لن يفكر فى كتابة مذكراته . .

كنت أود أن أقف بينهم ليعلم الجميع من أين جئت ، وأنى ولدت وفى فمى ملعقة ذهب .

أحضر لى لبيب صورا لفندق « العين الحمراء » الذى لقى نهايـة غير فندقية على أيدى العائلة الكريمة . . الصور تثبت فعلا أنه فندق جميل ومجهز بينها كبار رجال الدولة وفى مقدمتهم رئيس الوزراء يقومون بافتتاحه . . إنه

لا يقل عن فندق خمس نجوم . ليس كثيرا ما طلبه أصحابه كتعويض بلغ ٢,٥ مليون جنيه ، ولو أنى لم أدفع غير العشر ، وأرغمونى على أن أوقع تعهدا بألا يتم أى تعامل بين دودى وبينهم (دودى مصطلح دقيق ورائع ستتاح قريبا الفرصة للتعرف عليه . .) طالما هم أحياء . .

بعد عدة أيام جاء جندى يطلب حضورى إلى قسم الازبكية ، بعثت أحد المحامين ليتعرف على المشكلة ويتخذ الاجراءات . إتصل بى بعد ساعة يبلغنى أن صبيا من أقاربى تخلف عن الوفد الذى عاد إلى قواعده ، وأمسكوه يسرق فى أحد اتوبيسات شبرا . . طلبت إليه أن ينهى المشكلة بأى صورة ويعطيه نقودا ثم يحجز له فى القطار ويربطه فى الكرسى ولا يتركه إلا بعد أن يتحرك القطار .

يسرق . . يا للعار . . أنا شخصيا رغم ظروفى لم أسرق أبدا . . إلا مرة . . أو . . يمكن مرتين وربما ثلاثة . . لا أكثر . نعم مرات معدودة .

المرة التى أذكرها الآن كانت قبل سفر مشيرة إلى القاهرة بعد أن حصلت هى على الثانوية وأنا على الإعدادية . لم يرض المهندس منيرالانتقال إلى القاهرة حتى لو ذهبت الحاجة مع ابنتها التى تمنت أن تدخل كلية الآداب قسم الصحافة . . كان يحس أن أقدام الزمن بكل ثقة صعدت كثيرا فوق درجات عمره . . اليوم أو غدا . . ملك الموت لابد قادم يحمل فى كفه الأجل . . والأفضل أن يكون هنا بالقرب من الطين والشجر والطبيعة الوادعة .

أبت الحاجة السفر بدونه ، فتقرر أن تعيش مشيرة مع أختهـا زوجة الطيار فى المنيل لأن الشقة قريبة من الجامعة ، ولأن أختها فى أحيان كثيرة تكون وحدها لسفر زوجها الدائم ، وليس معها إلا ابنتها بسنت التى تبلغ العاشرة .

أحسست وهى تفارقنى كأنى أعود إلى بطن أمى من جديد لتنتهى حياتى القصيرة التى لم تر إلا الأيام المرة قبل أن تقع عينى على النسمة الرقيقة .

سنة كاملة وعدة أيام أغلى من عمرى كله ، وهدنة مع الزمان حتى يرى بعد ذلك فىّ ما يراه .

ماذا ستفعل يا غريب ؟ . . دارت الأرض بى عدة أيام وفرت الدموع من عينى لأول مرة ، ولم أفق من هذه الغيبوبة إلا بعد أن وصلنى خطاب تطلب فيه منى أن أبدأ المذاكرة وأمضى فيها بحماس يزيد على ما كان حالى عليـه وهى بجانبى وحسب قـولها تـرى أنى سأكـون إنسـانـا ذا حيثيـة فى المجتمع .

لا يزال هذا الخطاب فى حوزتى ، وهو نفسه الـذى قالت لى فيـه إذا حصلت على الثانوية فإنها ستعد لى مفاجأة لا أتصورها . . أحفظه عن ظهر قلب . . كان كفى الذى أحدق فيه كل حين وأتأكد مما قالتـه عرافتى . . أخذت أعدد كل أشكال المفاجآت والهدايا التى سمعت بها والتى لم أسمع ، ولم أتوصل إلى شكل مناسب أو مفاجأة محددة . . لا أستطيع بالـطبع أن أعرف ما يدور فى رأسها عنى . . الذى أعلمه أنها لم تسلم قلبها لأحد ، كما أنها لم تكشف عن مشاعر جارفة نحوى بحيث يمكن اعتبارها حبا ، لكنها أبدت تشجيعا كبيـرا وطلبت منى أن أناديهـا باسمهـا ، وكانت تحضر لى

الكتب ، وبعد سفرها أرسلت لى الرسائل . . لكن ذلك كله لا يمكننى من أن أعرف بالضبط رأيها فىّ رغم جنونى ورغبتى فى اتهامها بحبى .

هل يمكن أن تدعونى للاقامة معها فى القاهرة وأدخل مثلها الجامعة ! . . مستحيل . . تصورات بلا نهاية . أكثرها تخاريف وتجاوزات لا تود أن تتركنى لما أنا فيه وحيدا وشبه يائس لولا كلماتها التى تومض لى من بعيد كعيون القطط وتقول اتبعنى . . اتبعنى إلى حيث أذهب .

فى هذه الأيام وإحساسى يتصاعد ويترسخ بقرب رحيلى عن هذا المكان امتدت يدى لبعض القطع الذهبية وقليل من الجنيهات .

ولما لاحظت أن الوسيمى لا يعد العجول وهى تتزايد بفضل خدمتى بعت واحدا منها ، حملته على العربة التى كانت تقل مشيرة إلى المدرسة ، ذهبت به إلى السوق بعد أن عاد نبوى إلى بيته فى الصباح الباكر ، وأول مبلغ عرض على ثمنا له قبلته حتى لا تطول غيبتى . .

مضيت فى العمل والمذاكرة قدر الطاقة فقد عرفت طريق الخلاص ، وتقربت أكثر من المهندس منير والحاجة . لا أتأخر لحظة عن تلبية رغبة لهما أو السؤال عنهما . . لكن الأنس الحقيقى وغسيل القلب كان موال عبد الجبار . . مواله النافذ إلى الروح . . وابن الجنية كأن موهوبا فى قراءة العيون وتحليل الآهات وطريقة ردى على أسئلته ودائما مواله على الجرح .

يا ناس أنا غياب الحبايب وحشونى
وخلفوا نار جوه القلب وحشونى
نـدر علىّ إن جونى اللى يعزونى

لاعمل وليمة تكفى ساير الأحباب
واكنس بكمى وأرش الأرض بعيونى

●

دخل أمجد طوخ الإعدادية ، وكنت أصحبه إلى المدرسة ، كما كان الحال مع مشيرة . . شرعت كراهيته لى فى التراجع تدريجيا ربما لغياب سببها ولحاجته إلى ، خاصة أنى كنت أشرح له بعض ما يستعصى عليه فهمه .

ألح على خاطر غريب هو أن المهندس منير سيكتب لى فدانا من الأرض أو اثنين ، وأخذت أتصور وأحسب . . أقضى الليالى فى التمنى والحلم والبحث عن كل ما يؤ يد هذا الخاطر .

فجأة ودون سابق انذار أو تمهيد ، مات الوسيمى وسافرت الحاجة لتعيش مع ابنتها فى القاهرة وتولى نهاد ابن عم مشيرة وهو مهندس زراعى كل شؤ ون الأرض ، وكان أول قرار اتخذه بعد دقيقة واحدة من استلامه المزرعة هو طردى بلا تفكير أو سؤ ال أو ندم . . لماذا ؟ . . لست أدرى .

علاقة غريبة تربطنى بالطرد منذ مولدى الذى كان نفسه طردا . . ذاكرتى الآن تكاد تسعفنى بعشرات المرات التى طردت فيها أو اضطررت للطرد . . الطرد إما إجبارى أو اختيارى . . وهو فى كل الحالات طرد .

بعد طردى قررت أن أبحث عن مسكن قريب من سكن الطيار زوج أخت مشيرة لأنها حسب علمى تقيم عندهم ، وكنت أعرف أنهم يسكنون حى المماليك فى المنيل ، فيما بعد عرفت أنها انتقلت مع أمها إلى شقتها

بالدقى ، لكنى بقيت فى المنيل استعدادا للحصول على الثانوية . كانت الرصاصة قد انطلقت وغدا من المستحيل أن ترتد إلى بيت النار مهما حدث .

عثرت على غرفة فوق السطوح فى شارع دار الصناعة ، مضت الأيام وأنا بلا هدف إلا الثانوية . . بعد الثانوية تصبح رأسى برأس الجميع وخاصة ذات الوجه العنبرى والعيون الخضراء .

كان معى من الزاد ما يكفينى . . كلمات مشيرة تحز فى قلبى ولا تترك الفرصة لعقلى كى يعرف الندم . . وجنيهات أنفق منها على الضروريات ، ومذاكرة متواصلة لا يقطعها إلا حضورى لدروس فى اللغة الإنجليزية وأخرى فى الفرنسية ، ونزهة مرة كل أسبوع مع عفاف ابنة « الطنى » صاحب دكان بقالة يطل على كوبرى الملك الصالح . تعرفت عليها فى إحدى المرات وداعبتها فابتسمت ، وأطلت معها الحديث . فى المرة الثالثة هى التى استدرجتنى للكلام وقدمت لى زجاجة سيدر مثلجة . . كانت تضحك من كلامى . . راقبتها بلا اهتمام فلم ألاحظ أنها تفعل مع أحد مثل ما تفعل معى .

قدمت لها مرة زجاجة عطر ، فقدمت مقابلها عشاء كاملا من البسطرمة والجبن الرومى والبيض والمخللات والمربى . . تماديت . . ولم أكن كاذبا حينما امتدحت عينيها السوداوين الواسعتين وشعرها الطويل .

كنت أعرف مواعيدها ، فهى تقف مكان عم « الظنى » فترة العصر من الثالثة حتى السادسة لأنه يرتاح حتى يستطيع السهر .

انتظرها يوم الخميس بعد أن يتسلم أبوها الدكان لنتمشى على كوبرى عباس حتى كازينو الحمام ويكون الليل قد هبط ، نجلس نحو ساعة على

الكورنيش أمام قسم الجيزة . كان يخامرنى إحساس بالسعادة القصوى وأنا أختلس منها القبلات أمام الشرطة .

كانت مثل سكينة عرجاء ولكنها طرية وناعمة وخفيفة الظل . دائمة الضحك تميل للنكتة وتحب من يميل إليها . . لم نكن نكف عن الضحك إلا لنتبادل القبلات ، ولكنها تحب الضحك أكثر فهى فى عز القبلة تقطعها لتضحك من شىء تذكرته .

كان لابد أن أفكر فى نقل نشاطنا من الشارع إلى البيت ، وبقيت أبحث عن المدخل المناسب إلى أن تولى الله الأمر كعادته .

ما أن نجلس فى الغروب على أحد الأرائك الحجرية حتى تنهال علينا التعليقات السخيفة من المارة . . الصبية والشباب .

ــ أيوه يا عم . . . ربنا يسهلك يا عم .
ــ اللى يأكل لوحده
ــ الجاهل لم يسمع بالاشتراكية
وعندما قال أحد المارة وكان يسير مع شابه آخر .

ــ ممكن نأخذها لفة .

ثم ضحك هو وزميله . لم أستطع الاحتمال . نهضت فجأة وهجمت عليهما معا ، صرخت عفاف التى حاولت منعى فى البداية ، لكنى فيما يبدو كنت قد اشتقت للعراك ، لكمة واحدة قوية للولد الذى طلب أن يأخذها لفة . . سقط على الأرض ، لكن الآخر كان ذابنية راسخة ، وصاحب يد ثقيلة إذ كانت قبضته التى سقطت على صدغى كفيلة بأن تفقدنى توازنى

للحظات ، زاد ذلك من هياجى واحتشادى . قبضت على رقبته بكلتا يدى ودفعته بركبتى فى بطنه دفعة مفاجئة وكان يجب أن أصيب بها « محاشمـه » ضرب بساعديه ساعدى فلم أفلت رقبته ، وبحركة خاطفة لم أستعد لها كاد يطيح بى أرضا لولا أن تماسكت وقبل أن أعاجله بقبضة محكمة فى فكه السفلى حضر إلينا على عجل جنديان من جنود القسم حاولا جرنا جميعا للقسم ، فطلبت الصلح وانتهى الموقف بسلام .

رضيت عفاف أن تزورنى فى غرفتى تفاديا للمشاكل . . وجاءتنى فعلا فى أحد أيام الخميس .. طافت بالسطوح الفسيح الخالى . . لم يكن يعوقها عرجها ولا يمنعها من الحركة السريعة . . قالت أنها فى المرة القادمة ستحضر مبكراً وتغسل ملابسى وتطبخ . . العمارة أعلى من كل العمارات المجاورة أغراها العلو بالانطلاق والتفكير فى المستقبل .

قلت لها وأنا أمضى بها إلى الغرفة : ممكن أتفق مع صاحب البيت أن يبنى لنا غرفة أخرى ، مع السطح الجميل يصبحوا سكنا مناسبا لزوجين . . ابتسمت ، تقدمت من الغرفة وهى تضع كعادتها يدها اليمنى على ركبتها اليمنى بينما قدمها اليمنى تهبط إلى الأرض موجهة إلى الخارج فى غير اتجاه اليسرى . . اشتريت فى الطريق علبة من البسبوسة بالقشدة والتهمت نصفها فور دخولى من باب الشقة .

وبينما كنا نستمتع بلحظات جديدة تماما وجميلة ، ولا أحد يحس بنا ، فليس معنا غير الله والشيطان طبعا ، وبعد أن قطعتها إربا وهممت أن أجمعها وألم أعضاءها المبعثرة فى كل ركن .

سمعت الباب يضرب بعنف ويفتح فجأة . . الرجل بيده سكين أطول من السيف وفى الأخرى يد هون ، ويقسم بأنه لن يتركنا إلا فى القسم ، لم يستطع الشيطان أن يحمينا .

أصرت صاحبة البيت أن تغسل فى الليل وتصعد إلى السطوح لتنشر الغسيل الملعون .

تناهى إليها بعض الهمس . ولما أدركت الواقع وما يجرى فى غرفة العازب اشتعل غيظها وأسرعت تنادى زوجها .

بصعوبة لملمت المسكينة نفسها وكنت قد شاغلت الرجل حتى تسللت من وراءه ولكنها فى اندفاعها وقعت على الدرجات وكنت أسمعها وهى تتدحرج ويندق جسدها بينما كان الرجل يواصل إصراره على ألا أبيت فى بيته أبدا . .

وقبل أن أشرح له الموقف ، كانت زوجته قد ألقت بحاجياتى وكتبى من فوق السطوح . . سمعت فيروز لأول مرة تغنى بعد منتصف الليل وأنا أجوس فى الشوارع بلا رأس :

ضُمَّنى . . . ضمنى من وحشة الليل كما
لمَّت النسمة عطر النرجس

قبعت فى أحد الأركان وصعبت على نفسى . . ومنعت الدموع التى حاولت أن تتجمع .

●

« الى القاهرة »

ركبت قطار الخامسة والنصف من بركة السبع إلى القاهرة ، وهو ركاب قشاش نسميه « المستعجلة » ولم أقطع تذكرة رغم أن كل النقود التى كانت فى محفظة أبى نقلتها إلى سيالتى ، وخلعت من رقبتى الحجاب الذى علقته فيها مكاسب وقذفته حتى وصل إلى العالم الآخر .

قررت أن أحقق أمنيتى التى خامرتنى طويلا وهى التسطيح فوق ظهر القطار ، ولم أكن وحدى . . كان هناك عدد من العمال والجنود ، وجدت فى صحبتهم الونس والسجائر . . تفكرت فى حالى بعض الوقت . كنت أتصور أن الأطفال ولدوا ليكونوا سعداء ويظلوا كذلك . . لكن الكبار لهم رأى آخر . . ما أن خرجت متسللا من محطة سكك حديد مصر حتى وجدت رمسيس يتبول على القادمين . . فرحت بمنظره الهائل . . مضيت أتفرج عليه . . لقد أسلمت نفسى للموج بلا مقاومة ولا حتى دراية بأى شىء .

نمت فى أحضان قدميه عدة ليال ، شعرت تحته وهو الحجر بآمان لم أشعر به وأنا بين أبى وزوجته .

كنت متوجسا من خطورة التجربة وقرب انتهاء النقود والوقوف مباشرة فى مواجهة قوى تبطش بلا رحمة ، ولكنى لم أفكر لحظة فى التراجع إذ مهما اشتدت قسوة ما ألاقى فهى أرحم من بقائى تحت يد فنارة .

مضيت أتفرج على الشوارع . أدخل من ناحية وأخرج من أخرى ، أحياء بكاملها عرفتها وعرفت كيف يرتزق النـاس . . الكبار والصغـار . وقبل أن تنفد النقود عملت صبيا لأحد المكوجية ، أحمل الملابس على يدى إلى أصحابها فى منازلهم ، ثم تركته وبعت أمشاطا وفلايات وجلدة بطاقة وأقلاما جافة وأستيك وإبر . . غالطنى صاحب البضاعة فى حسابى ، وأكل حقى وطردنى . بعت جرائد فى الأتوبيس ، وفى الشوارع وإشارات المرور ، تعبت فيها جداً وتركتها لأن أجرتها هزيلة .

المشكلة ظلت هى النوم ، نمت فى المساجد والحدائق وتحت الكبارى ومواسير المجارى ، فى الميادين وعلى دكك السكة الحديد وفى القطارات ، إلى أن استيقظنا فزعين فى ليلة على عدد من جنود البوليس يحملوننا حملا ويلقوننا فى لوارى كبيرة .

فى القسم حرروا لنا محاضر وسألونا عن أسمائنا وأسماء أهالينا . . قلت أنا وقلدنى البعض : وعيت للدنيا لقيتنى من غير أهل .

من ذكروا أسماء أهاليهم وعناوينهم أرسلوا لهم وأحضروهم . كانت مناحة،بكى الأهل وهم يعانقون أبناءهم بشدة ولا يكمل الواحد منهم كلمة مع الضابط ثم يعود يبكى ويعانق ولده كأن الاب هو الولد . . أخذ الأهل أولادهم الذين قاوموا فراقنا وعرض بعضهم علينا أن نذهب معهم . . لكن ذلك لم يحدث وسمونا للملاجىء . .

استحسنت ذلك من البوليس لأن الشتاء كان قد هجم ، وفهمت بعد ذلك أن الله هو الذى أرسل الجنود .

كنت ونحن نيام فى الليل على الحشيش قد لاحظت أن بعض الأولاد تعلموا كيف يقتربون من بعضهم أكثر من اللازم ، ولم أكن أنا قد اكتسبت مثل هذه الخبرة وإن لم يطل جهلى بها .

أول شىء فى الملجأ صنعوه بنا هو حلاقة شعرنا من الجذور . . بعدها مباشرة بدأت رحلة التعليم . سعدت بها جدا لأنى كنت أشعر بنقص غريب ومهانة وأنا أرى أولاد المدارس يقرءون ويكتبون كالعفاريت ، وأنا لست أكثر من حمار . .

قضيت فترة أتعلم السجاد . لكننى مللته ، فنقلونى إلى الكهربـاء ، لاحظت أنها تخلو من كل فن وطلبت أن أنتقل إلى النجارة ، فقـد كانت تبهرنى صناعة الأثاث وأقف طويلا وأنا صغير أمام النجارين أرقبهم وهم يدقون بالشاكوش أو ينشرون أو يركبون الأويما أو يذهبون ويجيئون بالفارة ، ينحتون من الخشب طبقة بعد طبقة تتناثر تحت أقدامهم شظاياها .

لزمت النجارة مدة لولا أن سخر منى أحد الأولاد وسبنى بكلام قبيح فضربته وأسقطت له سنة وسال دمه ، لم أكن أحسب أنى قادر على ذلك ، لأن معظم معاركى وأنا فى العراء كانت أشبه بلعب الكـلاب . . أكثرهـا وحشية وخطرا أن يقلب الولد خصمه على الأرض ويدفعه فى صـدره عدة قبضات طرية وتنتهى المعركة .

فوجئت وأنا مستلق نصف نائم وقت الظهيرة بماء عـطن قذر ينصب فـوقى ، ذعـرت وقفزت فـإذا الـولـد يبـول فـوق وجهى . . أسـرعت

بالانقضاض على قضيبه لأقضمه لا أدرى كيف اندفعت نحوه ، قبل أن أغلق عليه فمى عاجلنى بضربة من قدمه فى صدرى أوقعتنى شدتها وأوقعته . . لمحت عينى زجاجة « جمالكة » قريبة من يدى سحبتها على عجل وضربته على رأسه وهو ينهض ضربة واحدة ، لم أتمكن من ضربه الثانية . تجمع علىّ كل فتية العنبر .

نُقلت للأحداث وقضيت هناك عدة سنوات إلى أن تمكنت من الهرب بعد أن كبرت وأصبحت كما يقولون فحلا وقد تجاوزت الثامنة عشرة . . كانت شهيتى مفتوحة دائما للطعام والرياضة خاصة الملاكمة ، هابنى كل من كان قريبا منى حتى السجانين وبعضهم أحبنى حتى أنه ساعدنى على الهرب ، وربما أراد التخلص منى .

خرجت من الإصلاحية وأنا مفتون بالسيارات التى كان يعلق صورها على الجدران بعض زملائى . . كانوا يطلبون من ذويهم صور السيارات والنجوم مثل برلنتى عبد الحميد وهند رستم وتحية كاريوكا فى ملابس الرقص .

وفقت فى عمل بأحد الجراجات بالمطرية . . كان علىّ أن أغسل السيارات وأدفعها للخروج أو الدخول . وحدى كنت أفعل ذلك . ببساطة أحرك من مكانها السيارة النقل وأدفعها والبطارية نائمة حتى تدور .

تعلمت قيادة السيارات ، وسرقت ما أمكننى سرقته من محتوياتها ، حتى أمسكنى بنفسه صاحب إحدى السيارات هو الدكتور حمدى بلاطة ، وبعد أن وبخنى من نوع : عيب عليك تبقى كما البغل وتسرق . . ليس فى الدنيا أحسن من الحلال . . كلنا نثق فيك . كيف يحصل هذا منك . . لأ . .

لأ . . المفروض يكون عندك كرامة وتحافظ عليها من أى أحد يمسها بكلمة .

ــ أصل يا بيه .

ــ كنت نفسك فى قميص . . أو نِفْسك فى سيجارة . . أُطلب منى ولن أتأخر .

ــ لأ يابيه .

نادى على صاحب الجراج الحاج فهمى الأُتربى وأخبره ، فوجئت بالحاج فهمى يقول :

ــ للأسف كنت حاسس وأكذب روحى . لابد من إبلاغ البوليس .

قلبى وقع فى رجلى . . وقبل أن أفكر فى طريقة لاسكات الحاج فهمى . . اندفع الدكتور بلاطة وقال :

ــ لا داعى يا حاج . . أنا واثق إنه عرف خطأه . أليس كذلك يا غريب .

أسرعت أقول وقد جاء الفرج .

ــ فعلا يا دكتور . . أنا متأسف وأعدك أنه لن يتكرر حتى لو سبت المكان .

قال د . بلاطة :

ــ إذا وافق الحاج عندى لك شغلانه ثانية . . ما رأيك يا حاج .

ــ موافق .

ــ تحب تشتغل فى مزرعة .

ــ تحت أمرك .

ــ أخى العميد مرسى بلاطة لديه مزرعة فى طوخ .

ـ عميد جيش أو بوليس .

ضحك وقال : وما الفرق ؟

ـ الفرق كبير .

ـ جيش .

• قلت بارتياح نسبى : جيش ممكن .

أمران أحلاهما مر . . لكن الذى جعلنى أقبل رغم أنى أكره الاثنين لله فى لله . . أنى انتقلت من مرحلة لمرحلة . بل من حياة لحياة . . فجر فىّ د . بلاطة إحساساً جديداً . لم يضربنى ولم يبلغ البوليس ولم يطردنى . بل عاتبنى وجهز لى عملاً أفضل . . ولابد أن تكون المزرعة أكثر لمنا من الجراج .

أحسست أنى أصبحت رجلا ويمكن أن أتعامل معاملة الرجال . . لا معاملة السيد للعبد أو الضابط للمتهم أو الهارب . . ولابد أن أصبح شخصاً آخر ، ولابد أن أبيض وجه الدكتور مع أخيه .

إلتقطت أنفاسى بروح جديدة وراضية قبل سفرى للمكان الجديد ، والعهد الجديد . رغم ذلك لم ينمح تماما إحساسى الدفين بأن العالم مغلف بالغموض والتناقض ، والناس جميعا تكاد تتفق على النيل منى ، لكنى . . لا أستطيع إلا أن أنفذ برأسى بينهم .

•

الإلهـــام

ما إن دخلت مكتب وزير الـرى لأجرى حـوارا معه عن ميـاه النيل وما يحدث لها من بحيرة ناصر إلى أن ترتمى فى أحضان البحر الأبيض ، حتى توقفت مبهورا بجمال سكرتيرته ورقتها . . وكنت قد صرفت نظر عن النساء بعد التطورات التى ابتلعت مشيرة وما جرى على سطح عمارة المماليك ، لكن هذه الفتاة جديرة بأن أتمهل قليلا فى قرارى وأزحـزح من رأسى ولو مؤقتا فكرة أن النساء عقبة فى طريق الصعود . إن معـاشرة هـذه التحفة الجميلة التى تتحرك فى خفة ورأسها كومبيوتر هى الصعود ذاته وقمة المجد .

أجريت الحوار مع الوزير ، وتوالت الحوارات مع السكرتيرة . . التى قالت لى بعد أن خطبتها :

ـ هل تتصور أننى كنت أتمنى الزواج من صحفى ؟ .

قلت : وأنا أيضا

قالت : وأنت ماذا؟

قلت : كنت أتمنى الزواج من صحفية

ابتسمت وقالت .: لكن

قاطعتها : ثبت بعد ذلك أن أنسب زوجة لى هى سكرتيرة وزير

ضحكت وقد غمر وجهها الرضا

فاستأنفت : ويكون وزير رى مصرى

فى هذه الأثناء طلبت الإنتقال إلى القسم الرياضى ، ودعوت سوزان لحضور أول مباراة سأكتب عنها . . واعتذرت لها عن اضطرارى للنزول إلى أرض الملعب حتى أستطيع المتابعة ، اخترت مكانا خاليا فى أحد الأطراف بالقرب من المرمى .

بدأت المباراة ولم أكن قد شاهدت مباراة واحدة فى حياتى ، وصفت حال الجماهير التى لا تستقر من التوتر ومواصلة التشجيع لفريق مصر الذى يلعب ضد موزمبيق لما أحرز الفريق المصرى هدفا فى الشوط الثانى . . ثارت الجماهير وطارت ثم حطت . . لوحت بالأعلام وهتفت بأسماء اللاعبين ورئيس الجمهورية وأبدت استعدادها للتضحية من أجلهم بالروح والدم .

لوحت لسوزان ولوحت لى . لاحظت أن عينها دائما على ، وأنها فيما يبدو مثلى لا تفهم كثيرا فى الكرة ، أو ربما هو الحب . . كان الجو على أية حال جميلا ومثيرا يتيح الفرصة للترفيه والتغيير .

قبل نهاية المباراة بثلاث دقائق ، قذف مهاجم موزمبيق الكرة بقوة على المرمى المصرى ، فمرت بجوار القائم ، إرتمى عليها حسن أبو ريالة ، حارس المرمى ولم يمسكها ولم تدخل الشبكة ، واتجهت نحو المدرجات ، فأسرعت إليها لأحضرها وقذفتها إلى حسن كى يتمكن الفريق المصرى من

العمل على إحراز هدف ثان ، وقد كانت الجماهير تطالب به . . وكانت الصحافة من قبلهم تطلب نصف دستة .

فوجئت بحسن أبو ريالة يتقدم منى متحفزا وعيناه ترمى بالشرر ثم صفعنى على وجهى وهو يقول :

ــ أنا تركتها لإضاعة الوقت يا حمار .

يا نهار أسود . . أفقت من هول المفاجاة بعد ثوان قررت أن أرد عليه بعدة صفعات . . اندفعت فى إثره ، لكنه كان قد دخل الملعب ، ومنعنى أحد الضباط وحاول تهدئتى

لقد رأتنى سوزان . . ورآنى الآلاف . كنت فى كل لحظة أنوى أن أدخل وأجره من قفاه حتى لو خلا المرمى لموزمبيق ، وأظل أدب فيه حتى أشفى غليلى . . ستكون فضيحة عالمية . . ولو . . لن أتركه .

على نار أقف . . وجهى ساخن ويداى ترتجفان . . أسترق النظر ناحية سوزان ، لم أستطع رؤ يتها من شدة هياج الجماهير المبتهجة بالنصر . . كانت اللحظات المتبقية تعنى للآلاف والملايين شيئا وتعنى لى شيئا آخر ، ولما أطلق الحكم صفارة النهاية . . أسرعت إلى أبو ريالة . . كان على أن أجعل هذا اليوم آخر يوم له فى الملاعب . . وقبل أن أصل إليه كانت المئات قد انقضت عليه وحملته على الأعناق تهتف : أبو ريالة . . أبو ريالة .

إختفى أبو ريالة تماما كما يختفى قرش اليتيم فى كومة هائلة من التبن . . وجدت نفسى وحيدا ، والطريق أمامى مسدودا بالعار .

بحثت عن سوزان فلم أعثر لها على أثر ، أسرعت إلى بيتها ، وجدتها هناك تنتظرنى خلف البـاب ، وما أن فتحتـه ورأتنى حتى ألقت فى وجهى الدبلة ، وانتهت علاقتى بها وبالقسم الرياضى فى يوم واحد .

كتبت أكثر من أربعين مقالا وأكثر من مائة تحقيق وحوار ، غير مئات الأخبار . . كتبت عن تنظيف الترع وعن المدن الجديدة وانتاج القطن . . عن جدوى المبيدات وأثرها على التربة وعن المصانع المتوقفة وعن المكاتب المكدسة بالموظفين ، والأحياء العائمة فى المياه . . عن القصور المهجورة . عن الفنانين الذين لا يعرفون شيئا عن السياسة ولا الثقافة . . كتبت عن شعور الموظفين أول الشهر وفى منتصفه . . عن رواد الفنادق بعد منتصف الليل . . عن جنود الأمن المركزى وعساكر المـرور ، عن التسطيـح فوق القطارات وعن عمال المجارى . عن تشغيل الجنود الجدد كمراسلة للضباط الخضـراوات وينـظفـون المنازل . . كتبت عن الشحـاذين والملاجىء والإصلاحات وعن السر فى عدم تنفيذ الأحكام على بعض المساجين ، وعن العوامات وما يجرى فيها .

كتبت عن قضايا كثيرة وموضوعات يخشى الصحفيون الولوج إلى عالمها واستمتعت بنوع لذيذ من الإعجاب والسعادة ، لكننى ظللت غير راض . لم أرد أبدا أن أكون كالعصفور ينتقل بين جميع الأشجار أو مثل تاجر الشنطة الذى لا مقر له ولا مهنة .

الصحافة عمل خطير للغاية يتيح الفرصة لمعرفة كل شىء ، ومشكلته الوحيدة أحيانا هى أن الصحفى لا يستطيع أن يقول كل شىء ، وبين هذه وتلك تكمن التعاسة .

ألح على إحساس غريب يطالبنى بأن أتخصص فى شىء محدد وأبرع فيه حتى أكون المرجع الأول فيه . . لابد أن أكون الوحيد . . ولابد أن تكون مفاتيح كل الأبواب فى يدى .

قد تكون القمحية ذات العيون الخضراء قد تنبأت لى بأنى سأكون ذا حيثية يوما ما ، وأنا أشعر الآن بأنى أود أن أتجاوز هذا بكثير ، ولدى القدرة على ذلك . تتناثر الأفكار الجديدة فى الهواء وتغرينى . . تأملتها جميعا وانشغلت بها ردحا لكنى لم أعثر على مرادى وظلت تلعب ألعابا فضائية وأنا أزدريها . . أنا لا أريد أن أكون الأول فى حل الكلمات المتقاطعة أو فى ركوب الدراجات أو علم وظائف أعضاء النملة ، أنا أريد مجالا تلجأ إلىّ فيه الملايين من الناس ويعرفنى الملايين . . شىء يهم كل إنسان تقريبا من الأمير الى الخفير . . وليس من طموحاتى أن أكون ملكا أو رئيسا . . هل ترانى أعيش فى الوهم . . إن كل ما فى الحياة يجيب بكل بساطة . . نعم أنت تعيش فى وهم . . أنت مجنون . . تريد أن تبدد المستقبل والحاضر معا . . لماذا تحمل نفسك وتشحنها بكل هذه الأحلام ؟ وليس ما يحدث أحيانا لبعض الناس إلا صدفة وحظ لا يملكون من أدواته إلا القليل ، فماذا تملك أنت من وسائل حتى يحق لك أن تطمح إلى أن تكون ملجأ الملايين ؟

فكر يا غريب . إبحث يا غريب . . اليوم قبل الغد يا غريب . . لو تتأخر يوما يسبقك مليون يا غريب . . لن يفيدك نوم ولا مزاج يا غريب . . لن تكون النساء هى المتعة يا غريب . . نم واشبع نوما بعد أن تقبض عليها . . إقرأ كثيرا . . تأمل كثيرا . . إسمع كثيرا . . إعمل كثيرا . . لف فى الشوارع وافتح إلى آخر ما فى طاقتها كل الرادارات التى فى جسمك وروحك وعقلك .

مرت الأيام ثقيلة ومخيفة ونفسى مصبدودة عن الطعام والمنام ، عن الكلام والسلام تبحث عن شيء لا تعرفه ، لكنى كنت أعمل بشكل يكاد يكـون متواصـلا ، كنت أومن أن العمل هـو الوسيلة الـوحيـدة للتفكـير والإلهام . . لن أجلس على الشاطىء وأفكر ثم تأتى الأفكار العبقرية مـع الانسام الرقيقة ، إنها فقط يمكن أن تأتى وأنت تدق مسمارا لتعلق صورة أو تصلح كرسيا ، ويمكن أن تهاجمك وأنت فى عز الكتابة عن الصحراء الجرداء التى تلون بالأصفر خريطة مصر ، وأبناء مصر يقيمون مع الأموات داخل القبور ، ويقيمون الجسور فوق الجسور ، ولا يجدون ما يقيمون به الأود ، فالعظمة كل العظمة أن يبقى الإنسان ولو جائعا مقهورا فى القاهرة ، أمامه القلعة وخلف ظهره إحدى عجائب الدنيا السبع .

وكان يوم . . انفجرت أمامى كقنبلة أو كنا فورة عين من المياه العذبة . عين لا تكف عن التدفق . . وجدتها فوجدت عمرى وانتصارى على كل شىء حتى على الموت . . انتصـارى الأبدى عـلى كل من طـردنى وهزمنى وساعد فى تشريدى . . انتصارى على كل من سبقنى وعلا واعتلا . . على كل من هجرنى وأنكرنى وتخلص منى كأنى وباء . . انتصارى على كل من حاربنى وأخفى عنى حقى أو أهمل فيه ، وكل من أهاننى أو آذانى وضيق على رزقى وباعنى رخيصا للهم والضياع . . انتصارى عليها .

أتنفس بعمق ، وأنا أمسك بـأول خيط من خيوط المجـد . . تنفسوا معى . . أمسكـوا يدى وأقـرصونى حتى أتـأكد أننى حى ، أتمتـع بلحظة الكشف والانتصار . . إمسكوا يدى حتى تنتقل إليكم العدوى . . عدوى المجد والوصول إلى المبتغى .

فوجئت وأنا أقرأ « الديلى نيوز » فى أحد الأيام بنص كلمة جيمس بلفور مندوب . . انجلترا فى الأمم المتحدة ، يقول فيها أنه كجده وزير خارجية بريطانيا الذى أوصى بانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، وهو يدعو لإنشاء وطن قومى لمحدودى الدخل فى مصر ، وهذا يعنى أن يجتمع فى مصر كل محدودى الدخل فى العالم .

قال بلفور الحفيد ـ سخطه الله ـ فى حيثيات اختيار مصر أنها أولا أقدم بلاد العالم ، وهى بهذا تعد الأم الرءوم للبشرية ، ثانيا لأنها أكثر بلاد العالم ـ فيما يشاع ـ إنسانية ورقة قلب ، فلا بأس من أن تحتضنهم وتمسح بيدها على ظروفهم ، ثالثا لأن بها أماكن كثيرة للدعاء وطلب الخلاص كالأضرحة والمساجد ومقامات الأولياء الصالحين ، ويمكن فى حالة زحام طالبى الدعاء والرحمة تكليف الأهرامات الثلاثة بالعمل على تقبل الدعوات وتبليغها أو تبديدها .

رابعا لأن مناخ البلاد نفسه كما هو مشبع فى الصيف بالرطوبة فهو مشبع أيضا بأبخرة الصبر حتى تتحسن الأحوال بعد عدة قرون ، وكما هو مفعم بالوحل فى الشتاء فهو يحتشد بالأمل والرضا ، ومع التلذذ بالدفء تحت الشمس فى الساحات وعلى الأسطح وفى الحقول والمقابر يتلذذ الناس بالانتظار . . انتظار أى شىء .

سحبت الورق بسرعة وكتبت ردا انتهيت فيه إلى مطالبة الحكومة باصدار بيان عاجل تشجب فيه هذه الدعوة قبل أن يستفحل الأمر ويستجيب لها الكثيرون وتصبح واقعا نحاول حتى قيام الساعة تصحيحه .

أصدرت الحكومة بالفعل بيانا قويا سحق هذه الكلمة وآثارها ، واجتثها من الجذور حتى التى فى قاع مخ صاحبها .

فى الوقت ذاته وبعد انقضاء العاصفة فوجئت ببعض هذه الجذور تنبت فى رأسى أنا . . كانت الأمسية جميلة والذهن صاف تماما حتى أننى لم أحاول إرغام نفسى على النوم مهما طال السهر ، وليحدث ما يحدث فى الصباح ليس من الذوق ولا من مبادىء الإحساس بالجمال النادر أن أترك هذا المساء الناعم ولمساته العذبة وأنا على زورق الأفكار هائم . . حتى طلع الصباح وقد بدأت الجذور تطول وتمتد وتتفرع داخلى وتشرع أوراقها فى الطلوع بكثافة . . إنه الضوء وعلى أن أتبعه إلى أن يصبح عتمة أبدية ، أو عتمة تفضى الى نور . . وجدتها إذن . . إنها أنتم . . نعم . . أنتم لغتى وأدواتى وتجارتى ، وأنتم الذين سأضحى من أجلكم وأقدم لكم عمرى وكل فكرى كى أنتقل بكم من حياة متردية إلى حياة تليق بالبشر .

أنتم المفتاح الذى سأفتح به الحجرة المغلقة التى يختبىء فيها مجدى وهنائى . . أنتم مستقبلى وأنا مستقبلكم . . أنتم الجماهير الغفيرة من ذوى الدخل المحدود . . مادة عملى وموضع كل نشاطى .

لابد أن توضع الملايين من ذوى الدخل المحدود فى الضوء الذى يليق بها ولابد أن تحتل القلب والوجدان ، ودائما أفكارها ومشكلاتها على سن القلم وطرف اللسان .

إلى متى تظل هذه الجموع حبيسة أدراج النسيان . . اللهم الا الشذرات القليلة من التذكر فى المناسبات الرسمية . . زيارة مسئول كبير أو انتخابات أو تذمرات .

إننى أرتجف من هول الإحتشاد والتفاعل والإعجاب والسعادة . . هل أكون نبيا وأنا لا أدرى؟ . أنا على يقين أن عهد الأنبياء ولى بمقدم محمد بن

عبد الله صلى الله عليه وسلم ، لكن هل رسالتى التى أناط الله بى الاضطلاع بها لخدمة البشرية فى متاهتها التعسة . . يسيرة . . أبدا لقد أخذتها على عاتقى وتخلى عنها العتاة أولى القوة ، وتقاعس عنها رجالات الأجهزة الرسمية ، وأشفقن منها ، وسوف أحملها بكل حماس وحب .

لقد فاق حبها كل من أحببت فى الحياة حتى مشيرة التى كانت تمثل لى نجمة فى السماء وقد صدمنى زواجها ، كما صدمتنى مقابلة أمها لى ، عندما زرتها لأول مرة بعد ترك المزرعة .

قالت لها : لا تفتحى له سكك عندنا . . أنا وأنت فى الشقة وحدنا فلمن يجىء ؟

لحسن حظ مشيرة ولكى لا أضطر لظلمها ، سمعت بأذنى كلام أمها الذى كان أقرب إلى الهمس ، وما أن دخلت علىّ مشيرة حتى قلت لها :

ــ سأنصرف الآن . . أنا حضرت فقط للإطمئنان

ــ ابق للغذاء معنا

ــ أشكرك ، وأرجوك أن تعتبرينى كما كنت دائما خادمكم

ــ العفو يا غريب

كتبت لها عنوانى لكنها لم تهتم مرة بالسؤال ، والتحقت مثلها بقسم الصحافة بآداب القاهرة لكى أراها على الأقل السنة الباقية لها . كانت هى فى الرابعة وأنا فى الأولى ، لكنها تأتى بسيارتها فى موعد المحاضرة وتغادر الكلية بعدها مباشرة ، وأحيانا يحضر زوجها الضابط الوسيم ليصحبها ــ

وهكذا لم تجمعنا الكلية كما كنت أتصور . . وان ظلت فى قلبى لا تبرحه ومن حولها مواويل عبد الجبار الأسيانة . . . هات يا عبد الجبار .

يـا حـلو يـالـلى قـميص الـنـوم شـكـا مـنـك
حـنـكـك يـنـقط عـسـل بـل الـقـميص مـنـك
والله إن عـطونى خـزايـن مـال فى سـنـك
. . . لأبـعـتر المـال وآخـد غـيـق مـنـك

●

دودى

لم يكن خافيا على أن مهمة كبرى كالتى نويت الإقدام عليها ، لن أستطيع وحدى القيام بها ، ولابد من فريق . . فكرت فى تأسيس جمعية رعاية محدودى الدخل « دودى »

ضممت إلى المشروع صديقى كامل شملولة وهو شاب بولدوزر ، كان معى فى الكلية ويعمل محررا للشئون السياسية فى الإذاعة ، بالإضافة إلى زميلى الرسام وليد عكة وجارى المحاسب ناجى لاوندى . طلبت من شملولة أن يبحث لنا عن محام . أحضره فى اليوم التالى . . نموذج رائع للمحامى القذر . . تربية شوارع وموسوعة قوانين ، إسمه نجيب حتة .

قرأت عليهم تفاصيل المشروع والهدف منه ، درسناه فى عدة جلسات وسمعت اعتراضات وجيهة وملاحظات طيبة ، وأخرى تجاوزتها . . ثم وضعنا التصور النهائى فى أوراق مطبوعة .

من هذه المجموعة وثلاثة آخرين كونت مجلس الإدارة ، كنت حريصا على انتقاء أعضائه وأطمئن بنفسى على عشقهم لمحدودى الدخل ، وإخلاصهم فى خدمة الفقير والتعس المقهور والمصاب . . المتألم والمسكين ،

كان هذا هو أهم معيار لاختيار كل من يريد أن يعمل معنا حتى لو كان ساعيا أو خفيرا . . وأنا صغير كنت ألعب مع الأولاد فى بركة السبع ونردد معا مقطوعة غريبة فى صياغتها ولها وقع جميل فى نفسى :

واحد اتنين   سرجى مرجى
إنت حكيم   ولا تمرجى
أنا حكيم الصحة
العيانة أديها حقنة
والمسكينة أديها لقمة
بدى أزورك يانبى
ياللى بلادك بعيدة
فيها أحمد وحميدة
حميدة ولدت ولد
سمّاته عبد الصمد
مشّاته على المشاية
خطفت راسه الحداية
حِدْ ياحِدْ بابوز القرد
عسكر فوق وعسكر تحت
إنت ولد ولا بنت
أنا ولد زى القرد

كنا نجتمع بشقتى التى تقع فى شارع البحر الأعظم بالجيزة ، ورضينا بذلك مؤقتا لحين استئجار   شقة جديدة تسهل استخراج الترخيص ،

وقد استطعنا الحصول على شقة مفروشة فى شارع ٢٦ يوليو أمام سينما على بابا . . قديمة وواسعة بها كراكيب لا أتصور وجودها حتى فى بيت خالتى فنارة ، لكنها فى شارع مهم وبها تليفون .

تخلصنا من كل محتويات الشقة التى عبثت بها أنواع عديدة من الحشرات فضلا عن الزمن . اتفق لاوندى مع صاحب العمارة على أن نطلى الشقة والواجهة كلها ومدخل العمارة مقابل ألا ندفع الإيجار لمدة سنة .

إشترى شملولة حجرة مكتب وأنتريه للإستقبال وإن كان نصف عمر من سوق امبابة وعثرنا على سكرتيرة جميلة وعامل غير جميل لكنه نشيط . . تمنيت أن أبعث إلى عبد الجبار ليكون قريبا منى ، وحيد وغريب غليظ الخلقة وعليه صوت ملائكى ، له هِلْب شبك بقلبى لا يبرحه ، وحوصلة مواويل لا تفرغ . . لكن الإيقاع السريع نحو دودى لم يسمح بأن أرسل إليه .

حصلنا على الترخيص ، فنشرنا إعلانا واحدا فى جريدة كبرى ـ على قد فلوسنا - عن بدء نشاط الجمعية واستعدادها لتقديم خدماتها لمن يود الانضمام لها . .

تعلن الجمعية المصرية لرعاية محدودى الدخل عن فتح باب العضوية لكل المصريين حتى الذين قضوا مدة عقوبة بالسجن لأسباب مخلة بالشرف أو قلب نظام الحكم أو المجانين أو الأدباء مهما كانت ظروفهم أو حساسيتهم وتحرم فقط النساء لعدم الازدواجية ما عدا الأرامل والمطلقات والعوانس فوق الأربعين .

تضمنت الإستمارة بعض الأسئلة والبيانات التى يمكن إذا أجاب عنها المتقدم بصدق أن تحدد موقفه ، وكنا نعرف أن الكثيرين سيكذبون فى توفير

البيانات مثل : العمل ونوعه ـ السكن ونـوعه ـ الـدخل الشهـرى ـ عدد الأولاد وأعمارهم ـ عدد الزوجات السلوكيات المختلفة لكل فرد ـ أماكن العمل والدراسة وبعدها عن السكن ـ الأملاك ـ الثقافة ـ الفن ـ الترويح ـ نوع الأجهزة المنزلية .

منذ الثامنة صباح اليوم التالى تقدمت الألوف تسحب استمارات ولم يأت الأسبوع الثانى إلا وكانت الجماهير قد سحبت مليون استمارة بمليون جنيه . . مسألة تدعو للبهجة إلى درجـة البكاء . . وشهـد أعضاء مجلس الادارة لرئيسهم بالعبقرية . . أما لاوندى فقـال « وكان فضـل الله عليك عظيماً

قال له حتة المحامى وهو يضحك : الله يفتح عليك ياشيخ لاوندى أين أنت الآن ياذات العيون الخضراءوالبشرة القمحية !؟

رغم سعادتى البالغة بالأموال التى انصبت علينا ، إلا أننى رأيت المضى بشكـل موضـوعى فى التجربـة . كنت أشك فى أن كـل هذا العـدد من المساكين .

حددت موعدا لفرز محدودى الدخل من الرجال والنساء أمـام منصة العرض العسكرى بمدينة نصـر . كلّفت كامـل شملولة بـالإشراف عـلى العملية . . أمر الجميع بالانبطاح ومر عليهم هو ورجاله بأجهزة الكشف التى تحتوى على كومبيوتر تغذى بالاسم والبيانات لكل فرد وما عليه الا أن ينطق اسمه ويقسم على أنه محدود الدخل . . ويوجه الجهاز أثناء حديثه إلى مؤخرة رأسه أو أى مؤخرة فتشتعل اللمبة الحمراء إذا كان غير محـدود ، والخضراء إذا كان محدودا ، كان لابد من التأكد من أنهم جميعا أصلاء .

العدد هائل والمساحة التى تبلغ نحو مائتى فدان مفروشة بالأجساد طبقة فوق طبقة دون تفرقة بين الرجال والنساء ، فهذا ليس وقته ولا داعى لسوء الظن . . وإن كنت أدهش لماذا زاد عددهم بعد هذا الفرز .

وقفت أرقب التجربة وهى تمضى نحو النجاح الأكيد ، وقد استطاعت الأجهزة أن تخرج عددا ليس بالقليل من المندسين الذين اتبعوا أساليب ماكرة فى الزى والماكياج فضلا عن الدموع ولغة الاستجداء البليغة .

إطمئن قلبى للنتيجة ولسير العمل على أسس محكمة . . كان عبد الجبار يقول « أربط صباعك مليح ، لا يدمى ولا يقيح » .

إحتفلنا بهذه المناسبة وقلت لهم وأنا فى حالة متردية بعد أن تجرعت عدة زجاجات من البيرة وتفرجت على راقصة ممتازة ، وأكلت نصف صينية بسبوسة بالقشدة :

ــ لابد أن أذهب للمطالبة بحقى فى ميراث جدى الباشا

لم يضحكوا مثلى ، بل قالوا :

ــ لا يتعين عليك أن تفرط فى حقوقك

وضحكت أكثر . . سقطت ولم أعرف ماذا جرى بعد ذلك إلا ظهر اليوم التالى .

كلفت وليد عكة بتصميم شعار للجمعية ، وكلفت شاعرا من غير شعراء الحداثة ليضع نشيدا يحفظه كل عضو ليستطيع ترديده فى المناسبات القومية أو فى اجتماعات الجمعية العمومية . . وأعددت صياغة لقسم يتلوه العضو ليكشف به عن ولائه للجمعية ورسالتها

صمم وليد الشعار وهو عبارة عن رجل يخرج من بدلته كل جيوبها فارغة وهو مرفوع الرأس ومعتز ، والشمس تشرق فوق رأسه . . جمعنا كل ذلك مع ذكر بعض مصادر التمويل والمزايا الممنوحة للأعضاء فى دليل مطبوع يوزع اجباريا وثمنه جنيه واحد ، وبذلك أضيف لرصيد الجمعية مليون آخر من الجنيهات .

بدأنا النشاط بتنفيذ بعض الخدمات . . إعانات للأحوال التعسة . . قروض صغيرة . . بناء أكشاك . . تسليم ماكينات خياطة . . دفع مصروفات الطلبة . . المساهمة فى تعيين بعض العمال والموظفين فى جهات حكومية وشركات قطاع عام وخاص ، وانتقلنا بعد ذلك إلى الخدمات الكبرى مثل افتتاح المطاعم المجانية للفول والكشرى والعدس .

نحصل على الأرض من المحافظة ومن الأوقاف . . ونقيم عليها مطاعم « دودى » من الخشب ولها جميعا طراز واحد . . فوجئنا بمشاعر الفرح الطاغية والتأييد الساحق لجمعيات محدودى الدخل ولشخصى المتواضع . .

واجتمع مجلس الإدارة لتقييم التجربة ، تحدث الجميع عن الأخطاء التى وقعت وكيفية تلافيها ، لكن النجاح كان كبيرا ومخيما على الملامح . . إلا لاوندى . . سألته .

ـ ما رأيك فيما أحققه من نجاح ؟

عدل نظارته وقال : وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى .

ضحكت وضحك الجميع ولم يضحك لاوندى ، وعاد يعدل نظارته لتبلغ أعلى أنفه وتستقر فوق عينيه ، ثم ابتسم فتغير وجهه الأبيض المستدير وأخذ شكلا آخر .

قلت لنعوم لاوندى : على فكرة أنت مسلم ومتنكر . . عامل نفسك مسيحى .

قال على الفور : لعن الله ذا الوجهين

قال له شملولة : ولماذا تحفظ القرآن ؟

رد لاوندى : أنا معجب به كنص

قال حتة : النصوص كثيرة

سأله نعوم: وهل هى مثل القرآن ؟

قال شملولة : إذن هى بالنسبة لك نص فقط

نظر لاوندى إليهم جميعا وأحس أنه محاصر وإن لم يبد عليه ذلك وقال :

ـ نص ومحتوى

سأله شملولة : أى محتوى بالتحديد ؟

قال لاوندى : المحتوى الأخلاقى على الأقل وهو الأهم

سأله حتة : فهل تحفظ الإنجيل ؟

أجابه نعوم : طبعا . . إنه كتابى

قلت له : ألا يوجد تعارض . . على الأقل فى رأسك ؟

ارتاح لاوندى فى كرسيه وهو يقول : اطلاقا

سأله حته : ولماذا لا تُسْلِم حتى تضمن الجنة ؟

رد لاوندى : ولماذا لا تسلم أنت ؟

وضحكنا جميعا حتى حتة ولاوندى

واستطرد لاوندى

ـ هناك من يحفظون كتب الله ولكنهم كمثل الحمار يحمل أسفارا .

قلت لنعوم :

ـ حتة عنده حق . . لماذا لا تُسْلم ما دمت على هذا القدر من الوعى بالدين الاسلامى ؟

تمهل قليلا ثم قال : لا أعطى هذه المسألة أهمية كبرى . . أنا فقط أريد أن أكون إنسانا لائقا بانسانيتى .

قال شملولة : ألا يعنيك أن تتقرب إلى الله

نظر نعوم إلى الجميع وتصورت من جديد أنه محاصر

ـ بالطبع يعنينى ولكنى لا أحس فى نفسى القدرة على عمل عظيم غير أن أكون إنسانا . . مجرد إنسان وهذا فى نظرى تقرب إلى الله

قلت له وأنا أغالب ضحكى :

ـ غدا لابد أن تذهب إلى الشيخ عبد الرحيم لتعلن إسلامك

قال ـ ولا تقل لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله . .

إندفعت فى هذا المجرم الذى يريد خبلى : غور منك له . .

وضحك الجميع وتركونى أفكر فى الخطوة التالية . . .

خصصت شابا مثقفا لاحظت أنه يقرأ الصحف كلمة كلمة حتى الوفيات كى يقدم لى بيانا بكل شكاوى الأهالى . . . . التى تحتاج إلى مساعدة مادية أو عينية أو طبية وشرعنا نكتب لأصحابها لمساعدتهم بشرط اشتراكهم كأعضاء فى الجمعية .

رفعنا عددا من القضايا لحساب بعض الأعضاء ، وكتبت الصحف عن نشاطنا ، ثم بدأ الحوار مع المحافظين لمنحنا أراض فضاء لمشروعاتنا فى الأقاليم ، وتوالت الحملات الإعلامية تشرح المرحلة الثانية من مراحل المشروع الاجتماعى الكبير الذى تضطلع به الجمعية .

أجرنا فى كل محافظة شقة وأعلنا عن رغبتنا فى تعيين موظفين على مستوى الجمهورية ، حضر تقريبا مليون من خريجى الجامعات وحاملى ماجستير ودكتوراة من العاطلين ، دفعوا رسوم الإمتحان ، وعُين فى كل محافظة ثلاثة فى البداية هم المسئولون عن نشاط الجمعية . فتحنا لكل جمعية حسابات فى البنك .

كان لابد من بعض المجاملات للصحفيين والشخصيات الهامة والمؤثرة ، وكان لابد من الاستعانة بالوزراء فى افتتاح المشروعات ، وهى مادة إعلامية لا تتخلف عنها أى صحيفة . . أوضحت للجميع طبيعة مشروعاتنا الإنسانية ، وأن كل شىء رسمى والمستفيدون أحياء وليس هناك زيف أو خداع .

الفكرة بسرعة تتحقق وتتجسد وأنا غير قادر على وصف الحالة الشعورية لأعضاء مجلس الإدارة ونحن نقوم بهذا الدور ، أرى الابتسامات والفرح والاقبال ، وأطالع الثناء وأسمع الدعوات لى تتوالى وتتكدس ، وهناك من يبحثون عنى ولو بالسلاح لتقبيل يدى ، يريدون أن يلمسونى بأنفسهم ليتأكدوا أننى شخص طبيعى ، مد يده لهم فأنقذهم من وهدة الضياع .

إقترح على حتة أن أربى لحية . . قال إنها تليق بى وابدو فيها جديرا بمزيد من الثقة ، لكن الشيخ نعوم انسحب من لسانه وقال .

ــ لا ينظر الله إلى صوركم ولكنه ينظر إلى قلوبكم

لم أهتم ورحبت باقتراح حتة استعدادا للخطوة التى كان يجب أن أخطوها . خلال شهور قليلة أصبحت لحيتى تصل إلى ثديى

أنا ـ ولا فخر ـ أول من أقدم على تـربية لحيتـه من المسئولـين الكبار وأصحـاب المشروعـات . . أحسست أنها ذات قيمة وهيبـة ودلالـة عـلى التقوى ، وإن كانت تقواى لا تحتاج إلى دليل فأنا كما قال نعوم إنسان وأخدم الإنسانية .

أنا الرائد الأول لهذا المنهج الذى تبعنى فيه عدد كبـير من المحدودين والمسئولين ، وأنا أتميز عن الجميع بالوطنية الخالصة ، إذ أن أفكـارى من بلدى وأموالى من بلدى وليست مستوردة ، وخدمتى كلها لأولاد بلدى وجميع المشروعات التى ينهض بها الآخرون تتعامل مـع الميسورين أمـا أنا فكـل مشروعاتى مع « دودى » ومن أجل عيون « دودى » .

بدأت حملة لجمع التبرعات من الأغنياء والحكومة وأبنائنـا فى الخارج وأعلنا عن تعيين جامعى تبرعات بعمولة ٥ ٪ ٠٠ تقدم مليون من خريجى الجامعات والمعاهد المتوسطة وحاملى الماجستير والدكتوراه من العـاطلين ، سحبوا استمارات ودفعوا الرسوم وعُيِّنَ نحو مائة .

أعلنا عن تعيين مندوبين إعلانات بعمولة ١٥ ٪ ٠٠ تقدم الآلاف . سحبوا استمارات ودفعوا الرسوم عشرة جنيهات لكل أستمارة ، وعين نحو مائة .

مع نزول صورتى باللحية فى الجريدة مع كلمات بعض الصحفيين من الأحباب والمنتفعين ، إنهالت التبرعات ، شىء مثير وممتع للغاية . . كشفت هذه الحملة عن كمية الخير الهائلة التى تحتشـد بها قلوب المصـريين وربمـا تكشف عن الحجم المخيف لإحساسهم بالذنب ، فيتبرعـوا بجنون طلبـا

للمغفرة . . وانا لم أعـدهم بذلـك . والمصريـون يتمتعون بحس فـطرى للتكافل الاجتماعى وكانـوا فى شوق بـالغ للعثـور على مُنّـظِّم أمين لهـذه المشاعر . . الحمد لله فقد وجدوا هذا المنظم الذى تقدموا له بتبرعاتهم من كل مكان . . فى الداخل والخارج . . مادية وعينية . . أراض وعقارات . .

وصلتنا تبرعات عينية قدمها بعض الأفراد طالبين عدم ذكر أسمائهم لحساسيتها ، وكنا نود تسجيل ذلك فى لوحة الشرف لولا أنهم أبوا بإصرار لأن بعضها فيما يبدو مسروق . . من هذه التبرعات :

— آخر طقم داخلى خلعته الراقصة دلال رشدى قبل أن تلقى حتفها فى الحمام ومسجل عليه التاريخ لأنها كانت تلبس الطقم مرة واحدة .
— لوحة مجهولة للفنان الايطالى الشهير طورشيللى وهى الوحيدة له التى لا تظهر براعتها إلا من الظهر .

— مسودة رواية أمريكية ممنوعة النشر عليها ختم المخابرات المركزية
— شهادة بدرجات روميل فى الابتدائية ولا يتضح منها أى شىء .
— صورة أحد وزراء فرنسا بالشورت فقط وهو يتقدم مظاهرة تدعو للسماح بالشذوذ

— صـورة للمطربـة الشهيرة شـرويت وهى فى أحضـان أحـد قـادة الجيش . . أيام شبابها
— صورة مكبرة مساحتها ٢ × ٣ م للرئيس السادات أثناء استشهاده فى ٦ أكتوبر سنة ١٩٨١ .

عرضنا هذه القطع وغيرها فى مزاد خاص بصالة المنزلاوى فبلغ أقصى عائد لها ألف وخمسمائة جنيه . ألغى المزاد ، ورأيت عرضها فى مزاد مدام مونيه فى باريس فبلغ العائد خمسة مليون دولار ، بقى لنا بعد التكاليف ثلاثة ملايين ونصف من الدولارات أبقيتها بالخارج باسم الجمعية فقد نحتاج إلى آلات أو معدات . . سفر وقود . . أو دعاية وربما مشروع فى المستقبل لجمعيات رعاية محدودى الدخل .

آن .. الآوان

حستنى اللقاءات الليلية العديدة مع علية القوم أن أفكر فى الزواج . . كنت قد قاربت الأربعين وقد آن الأوان كى يجد الجسد عشه الخاص على سنة الله ورسوله .

لم أستطع طوال الفترة السابقة التخلص من طيف مشيرة ، أرسلت إلى زوجها أعرض عليه العمل فى الجمعيات بمرتب مغر ، رفض ، ولا حاجة بى لمعرفة دور مشيرة فى هذا الرفض .

كنت أود أن تـرانى بعينيها بعـد أن أصبحْت عـلى مستـوى نبـوءتهـا وزيادة . . لم يكن شعورا بالإنتقام فهى لم تسىء إلى . . على العكس . . كان يجب أن ترانى بكل ما فيها من حياة . . ترانى وأنا أبتلع فى بطنى آلاف الأشخاص وأتسبب فى سعادة وشقاء الملايين وأتحكم فى مصائرهم . الملايين الذين تمنيت أن يكونوا فى حوزتى بشرا وأموالا .

كنت قد حصلت بطريقتى الخاصة على صورة حديثة لها ولابنتها الجميلة ياسمين وهى مثل أمها . . وجه عنبرى وعيون خضراء وشعر ناعم طويل وكثيف .

أقنعت نفسى أخيرا أنها مهما علت فقد تحدد سقفها وأصبحت دون بكثير ، حتى الفكرة التى خامرتنى لشراء مزرعتهم ومزرعة بلاطة معا تلاشت لأنى لست عنيدا لهذه الدرجة .

أنشأت أنا مزرعة المظ . زرت قبل البدء فيها عشرين مزرعة عالمية فى أمريكا والبرازيل والسعودية والمغرب . . رأيت أن تجمع كل مزايا هذه المزارع وتفوقها .

مزرعة فيها من أنواع الحيوان والنبات والبشر أيضا ، يتحقق لى فيها هدوء نفسى نادر ، وأحلى أوقاتى فيها تلك التى أزور فيها العجول . . ليس فى الدنيا أروع من العجول والدواجن . . إنها الخير يتدفق بسرعة تدعو للدهشة والفرح . وفى هذا العالم يولد الجمال الحقيقى منذ أن يكون طفلا بريئا يتعثر فى حركته ويبحث بفمه عن عيون الحياة . الجمال الحى النابض بالثراء ، وأحسب أن من يستطيع أن يزرع حوضا أو يربى دجاجة ولا يفعل شخص كتب عليه أن يعيش حياة جافة بلا طعم .

مزرعتى فيها كل خيرات الدنيا ، وفيها قصر من الزجاج . كل شىء فيه من الزجاج والبلور حتى السلالم والجدران والمكاتب والمطبخ والأسرة والأوانى والبشر . . نعم . . تقوم على خدمتى فيه مجموعة من الفتيات الرائعات،فتيات من اللؤلؤ .

لم أتعود فى كثير من شئونى أن آخذ رأى أحد ، لكن فى موضوع الزواج كان لابد من استطلاع الآراء . . على الأقل رأى شخص أو اثنين يعتمد عليهما . . إكتفيت برأى كامل شملولة . .

قلت له بعد أن أصبحنا وحدنا وقاربت الساعة الحادية عشرة مساء

ــ نويت أن أتأهل

ــ ألف مبروك ياريس

ــ يبارك فيك

ــ هل أعرفها ؟

ــ من هى ؟

ــ التى ستتزوجها

ــ ولا أنا

ــ ماذا ؟

ــ أنا فقط أريد

ــ أحسبك وقعت فى الحب

ــ أنا لم أقع فيه إلا مرة واحدة

ــ وسوزان

ــ لم تسمح الظروف باستكمال التجربة

ــ وزميلاتنا الصحفيات

ــ نفس القصة . . كنت أكتشف خططهن مبكرا

تقدم من الثلاجة وفتح علبق عصير مانجو ، وسألنى :

ــ هل ستتزوج بدون حب ؟

آه . . حب . . أحب من وكيف ومتى ؟ . . تنهدت وقلت :

ــ الحب ياشملولة عالم معقد ، وتركيب روحين عمل ليس أبدا من صنع البشر وما دام لم يحدث وحده وبشكل طبيعى فليس بإمكان أكبر المخلوقات وأعظمها صنعه .

كنت أتحدث ونظراتى لا ترى شيئا إلا فضاء شاسعا بلا نهاية . . تمر به سحب هائمة وأشجار تتقلب وبشر يطير . . قلوب تتعانق وتنفعل ثم يتساقط بعضها ويتجمع البعض الآخر ويلتحم ويتحد ثم يصبح قلبا واحدا فى وسطه شفاه تبتسم . .

الحب . . لا تزال هذه الكلمة لها سحرها الآخاذ وغموضها اللذيذ مهما عبث بها العابثون ، وبرغم ما طرأ على رموزها من تغيرات تأثرت بآليات العصر المجنون . . الحب . . لا زالت كلمة رائعة تشير إلى أسمى علاقة فى الوجود . . ولا زالت ذات اغراء وقدرة على أن تطوى مريديها وتسلب أرواحهم ، فيقدمونها وما يملكون عن رضا وابتهاج تحت أقدام ربة الحب والجمال .

ـ باريس . . لم لا ترد ؟

ـ ماذا قلت ؟

ـ أقول ما هى شروطك ؟

ـ أولا ما هى شروطها ؟

ـ وكيف نعرف ؟

ـ نسأل أنفسنا

ـ إسأل

ـ هل أنا أهل للزواج ؟

ـ أنت نموذج لوفرة العناصر اللازمة لزوج سعيد تتمناه أجمل النساء

ـ وسنى

ـ أنت فى نحو الثالثة والأربعين وهو سن النضج والعقل

ـ ماذا ينقصنى ؟

ـ هل تريد الصراحة ؟
ـ وليس غيرها
ـ أنصحك أن تخفف من العمل وتسلم نفسك للحفلات والزيارات إلى أن تعثر على بنت الحلال التى ترتاح إليها
ـ لا وقت لدى . .
ـ ما هى طلباتك إذن ؟
ـ طلب واحد . . أن تكون بنت وزير .
مط شفتيه متعجبا كأنى قلت له أريدها بنت شحاذ
ـ ولماذا وزير ؟
ـ حيثية أدبية
ـ مـا دام المطلوب هـو الحيثية فلمـاذا لا تكـون بنت ملك أو رئيس جمهورية
ـ لا . لا . . هذه مبالغة لا أشكرك عليهـا ، ثم أنى قررت وانتهى الأمر
ـ يعجبنى فيك حبك للحوار والديمقراطية
ـ اختر لى وزيرا على كيفك
ـ وزير التموين
ـ لا
ـ المالية
ـ لا
ـ وزير الثقافة . . هذا أحسن اختيار
ـ إنك تضيع وقتى

ـ يبدو أنك وضعت عينك على وزير محدد

ـ وزير الداخلية

ـ والمصحف أنت عبقرى

ـ هذا رأيى أيضا

ـ فهل عنده بنات للزواج

ـ أنا اخترته هو ووزارته وليس ابنته

ضرب كفا بكف متعجبا

ـ هل ستتزوج وزارته ؟

ـ سلطته

ـ ولماذا تحتاج إلى سلطته ؟

ـ مهما كان عملك شريفا فلا تطمئن

ـ أسمع أن عنده بنتاً

ـ مهما كان شكلها سأتزوجها

ـ وإذا لم تكن هناك بنت

ـ أخته . . بنت أخته . . بنت أخيه . . حماته . . أمه

دخل لا وندى . . قلت له : ابن حلال . . إجلس .

لاوندى كارثة بشريه صامتة . . نقلت له رغبتى . . تمهل قليلا ثم قال :

ـ إذا سألت فاسأل الله

قلت وأنا أضحك من اللعبة التى يلعبها وإن شاء الله أتنبأ له بالفقر الذكر .

ـ يا متخلف . . إننا نستعين على قضاء حوائجنا بأصحاب النفوذ

قال بهدوء أعصاب يمكن أن يؤدى إلى إجهاض اى امرأة خصبة .

ـ أليس الله بكاف عبده

عندما سمعت كلامه الذى يغيظ ويكيد ، قلت له :

ـ أنا المخطىء لأنى أسأل مثلك عن هذه الموضوعات . .

كم من مرة أقرر ألا أسأله عن شىء ، لكنى أنسى وأساله .

لم أكن بحاجة إلى دراسة امكانياتى وجدارتى بابنة وزير الداخلية ، لكن عندما تأملت طويلا شكلى فى المرآة راعتنى اللحية ، إنها فعلا مثيرة وجبارة ،

وقارنت بينها وبين رأسى الصلعاء إلا قليلا ، تذكرت الملجأ وحرص المشرفين فيه على اجتثاث الشعر على فترات متقاربة ، وكأن طول شعرنا سيجعل من أحدنا شمشونا ، أو كأنه سيساعدنا على الهرب . . يقولون أن سبب ذلك رغبتهم فى تخليصنا من الحشرات ، لكن حرصهم على النظافة لم ينزع من الأذهان سياسة التحقير التى يتبعوها فى الملجأ والاصلاحية .

أشار على مصففو الشعر وأساتذة التجميل الذين أحضرتهم للاستشارة فقط ، بضرورة ارتدائى باروكة جربوا أكثر من عشر باروكات ذات ألوان مختلفة . . أخيرا لم أجد مبررا لارتداء باروكة إذ رأيت أن رأسى بدونها أجمل . . فضلا عن أنها الحقيقة ولا حظت أن الصلع ينير الوجه ودعك من مسألة حماية الشعر للرأس من الشمس والمطر .

تذكرت أن فى ذقنى الأصلية طابع حسن اختفى تحت الشعر الأسود الذى ظهرت فيه شعرات بيضاء . . طلبت إزالة اللحية . أطلت ذقنى بطابع الحسن الجميل . . أضاء الوجه وبدوت أكثر شباباً . . . . . .

بعد التعديلات لم أحتمل جمالى فى المرآة . كنت أبدو كنجم السينما بول براينر إلا قليلا . صلعتى . طولى . سمارى ، أما طابع الحسن فيشبه كورك دوجلاس ولا أختلف عنهما إلا فى سمنة قليلة وشارب كث على شكل مستطيل محدد الأضلاع مثل شوارب أهل العراق والشام .

ورغم أن أنفى طويل قليلا وأذنى كبيرتان قليلا ، وخدى بارزان قليلا إلا أن الصورة العامة كانت فاتحة للشهية .

تبين أن لدى وزير الداخلية بنتا مناسبة ، كان أبوها قد تلقى عرضا من ابن رئيس مجلس الشعب ، فطرقت الباب ، ورأى الأب التمهل لحين عمل التحريات اللازمة عنى بوصفى الرئيس العام لجمعيات محدودى الدخل « دودى » ثم وافق الوزير ، وزار القصر الذى ستقيم فيه ابنته واطمئن إلى توفر كل أسباب راحتها وسعادتها .

تزوجنا فى حفل لا أستطيع هنا التحدث عنه وأنا المسئول عن البؤساء .. طرنا نلف العالم فى السر طبعا ، ونشرت الصحف أننا نقضى شهر العسل فى فيلا أبيها بالها نوفيل

بعد الزواج أحسست أن بلادنا تحتاج إلى مكاتب للزواج .. مكاتب الزواج المحدودة على غرار الحمامات المحدودة التى أنشأناها ليستحم فيها الأعضاء مجانا ، وهدفنا لا يخفى على أحد وهو التقليل من انتشار الجرب وبالتالى الهرش .. الذى يمكن مع الوقت أن يصبح السلوك العام لأغلب الناس .

ومثل ذلك أنشأنا الغسالات المحدودة التى تغسل ملابس الأعضاء ، وما أدراك ما ملابس الأعضاء .. وأنشأنا أيضا الأتوبيسات المحدودة

وخصصنا عددا لكل محافظة وكل مشروع عليه شعار « دودى » الشهير . . الرجل المفلس ، مرفوع الرأس ومعتز بينها الجيوب فى الفضاء منشورة ، والابتسام بملء الفم والشمس مشرقة .

أما مكاتب الزواج فالغرض منها تمكين الرجال من العثور على النساء اللائقات ، من تريد الزواج من النساء فعليها أن تتقدم للمكتب وتبلغ عن اسمها وتقدم صورة لها وبيانات بمواصفاتها وتقيد فى ألبوم الحريم . . والشاب المشترك يحق له أن يتفرج على ألبوم الحريم مقابل رسم قدره خمسة جنيهات . وهناك ألبوم أيضا للرجال من حق النساء الاطلاع عليه ، ولا يشترط أن تكون الراغبة فى الاطلاع آنسة أو مطلقة أو أرمل .

وإذا وقع اختيار أى شخص على شريك حياة المستقبل ، يدفع خمسة جنيهات لقاء المعاينة . . فيطلب لقاءه ويجلس معه لمدة ربع ساعة فى مقر خاص تابع للمكتب وهو مراقب بدائرة تليفزيونية حتى لا يلمس أحدهما الآخر ، وفى حالة اللمس يدفع غرامة تعادل الرسم ، ويمكن زيادة المدة بنفس القيمة عن كل ربع ساعة إضافى .

كان لابد أن يتابع هذا الجهد الذى اتسع اتساعا هائلا صحيفة خاصة بالجمعيات وقد سهل المهمة أن نصف مجلس الادارة بما فيهم الرئيس صحفيون ، لذلك رأيت إصدار جريدة أسبوعية تحمل اسم « دودى » واعترض الأعضاء على الاسم ، قررت لأنى ديمقراطى ــ أن يكون هذا هو اسمها وإلا فليست هناك أية صحيفة سوف تصدر . . أنا ديمقراطى أحب المحدودين وسوف أقاتل العالم من أجلهم . .

أقبل الجميع على شراء « دودى » وبدت بعد عدة أعداد قوية وصبية وجذابة بها صفحتان للجمعيات ونشاطها وللاعلانات والشكاوى والردود ، ولم نسمح فيها بأى كلمة نفاق لأى مسئول ، وبهذا تتميز عن جميع الصحف دون أن نكون صحف معارضة .

توالت علىّ بعد تأسيس الصحيفة عروض لاقامة ندوات وحوارات ، ودعيت إلى عدد من الجماعات والمراكز العلمية والاجتماعية والنقابات لعرض آرائى والحديث عن التجربة الرائدة ، وتألق اسمى أكثر من ذى قبل مع ازدياد الحملات الاعلامية ، وعمل استبيانات للأعضاء الذين أبدوا انبهاراوسعادة بالتجربة والاخلاص فى العطاء والخدمة ، أعقب ذلك عرض من بعض الشخصيات المقربة من الرئيس لتأسيس حزب ، وأبلغونى أن الضوء الأخضر مشتعل أمام أى فكرة رسمية أعرضها . رفضت هذه الأفكار وقلت :

ـ إن الجمعيات حزب واضح البرنامج وليس دوره عقد ندوات أو مؤتمرات للحديث فليس وقتنا وقت الأحاديث والتأييد أو الشجب ، ولكنه وقت العمل ، والحمد لله .. جمعيات دودى تعمل وبلغ عملها كل النجوع ، وأياديها تمتد إلى كل من يحتاجها ، وعرضوا على الإستعداد لقبول الوزارة فرفضت شاكرا هذا العطف والثقة..الشيء الغريب أنى غير قادر على نسيان الوجه العنبرى والعيون الخضراء .. تتخلل قلبي وتأتيني كبخور يملأ شهوات الأرض .. ها هى تغمرنى بلغتها السحرية ويتمشى عطرها فى كل موضع تطأه قدمى .. تحيطنى عيناها .. من فوقى وتحتى ، عن يمينى

وشمالى . . وأنا لا أقبض إلا على طيفها . . واشتيـاقى . . هات يـا عبد الجبار . . هات موال :

يااللى معاك جرح فى المهجة . . . وعَلْ عليـك
بتحكى للناس على اللى لك . . وع اللى عليك
الفكـر قادك . . منـع زادك . . . وعل عليـك
يـا غاوى حب الـزهـور وانت ضعيف وبسيط
شغلت بـالـك بنـظرك للجمـال . . بصيت
العشق من نـار مش لعبـة صغـار . . وبسيط
وبحـر المحبـة غـويط والمـوج ده عـالى عليـك

●

عزيزة

مثلها تماما فوجئت بخبر مصرع زوجها فى حادث سيارة ، وفى نفس اللحظة ذهبت لأقدم لها خالص العزاء . . بعثت من قبرها غابة الحنين . . وفى البيت كانت ترن موسيقى الدمع الهادرة . . أشفقت عليها ففى جسدها تكمن روح النبات الرقيقة .

قابلتنى بجفاء . عذرتها . هى فى موقف صعب ولكنه أمر الله . .

طوال أيام لم يفارقنى طيفها إلا لحظات . . بعدها عرضت عليها تخفيفا عنها أن تقبل الإقامة فى قصرى لأى مدة تحددها وبرفقتها من تشاء وأقسمت لها أنها لن ترى وجهى طوال مدة إقامتها . رفضت . . قلق أنا من أجل حالتها وهى تعتصر نفسها حزنا يتجاوز المقدار المخصص لزوج مهما كان حبيبا . كان صبرها مفعما بالقسوة كمن يبحث عن الجانى وينتظر الفرصة المواتية لاطلاق قوس الغضب .

قلت لها : لا تسمحى للحزن كى يدقك فى الهون كالفلفل والثوم لم ترد . . أعدت عليها عرضى فأبت وقالت إنها ستذهب للاقامة بعض الوقت عند أختيها فى [illegible] . . [illegible] مستاءة . . حقا إن لطيفها

رهبة تهوى بجبروتها علىّ وتأسرنى ، أنا الذى استمتع بكل ما فى العالم من حرية . . أنا السيد وكبير السادة .

لا تزال تأتينى بصورتها الأولى وأطياف الجمال الخالد تنبع من وجهها العنبرى وعينيها الخضراوين . . هذا السحر الهادىء المتوارى .

تتحدث رقتها إلى وجدانى المشبوب . . لابـد أنها الروح التى سـوت قدرى وألهبت جوادى كى يغذ المسير نحو الأعلى . ما تراه الغموض الذى أحسه تجاهها ؟ . ولماذا لا يشيخ ككل شىء . . حبهـا فى قلبى . . وهى بعيدة تماما عنى !!

ثمة غشاء من عينيها يحيطنى برغم انطلاقى . . يقيدنى إليها ، وكأنى مهما عبرت الأكوان لاتزال على ملامحى آثار يديها التى صنعتنى .

لماذا أنت يا ملاكى حزينة وقاسية ؟ .

تبحثـين دائما عن أغـلال جديـدة ، لماذا لا تتخلين عن هـذا الكمد وتتسلقين شجرة النسيان . . فالنسيان يحملك إلى الحلم ، والحلم يرفعك فوق الدنيا حيث العوالم الزاخرة بالبهجة . فأكلؤك بنظرى وأدخلك جنتى ، ويكللها عبيرك .

أنت فى السواد غريبة . . يا أيتها الصبية الخضراء الجميلة . . أطيعى وتعالى إلىّ . . إلى عالم دائما ينتظرك .

أراك دائما حتى وأنت فى حزنك فتاة المزرعة الرقيقة . . تدريجيا ها أنت تعودين إلى قسوتك وترتدين الخشن وتلوذين بصمتك المستفز الذى يوشك أن يطردنى .

•

مزعج أن تقول لبعض صديقاتها أن زوجها لم يمت موتة ربه ، موتة من إذن ؟ . وصلنى أنها توحى لهن بأن رجال الغريب ألمظ لهم فى مصرعه يد . . مجرد تفكيرها على هذا النحو مرفوض . ومقزز .

إن عزرائيل هو المسئول وليس أبدا رجالى ، والمشكلة أنها لا تستطيع أن ترفع عليه دعوى ، وتكتفى بأن توجه أصابعها نحوى .

لقد اخترت رجالى وأثق بهم وأعلم كل شىء عن أفكارهم وطموحاتهم ومشاكلهم وعدد خطواتهم واتجاهاتهم ، إن عملى حساس ولا يخفى على أنه يمثل مطمعا وفرصة للكراهية والحقد ، ولكنى متنبه تماما لكل حركة وكل كلمة .

وليس تباهيا التصريح بأنى أتميز بقدرتى على توجيه الناس وإدارتهم . موهبة ربانية .. . الكل يذعن لى ويطيع ، وتفكيرى حاد ودائما مستعد ، وهو مرن جدا ومنطلق كحصان ومهما كان ارهاقى وتحطم نظامى فان دشا باردا كفيل بتجديد طاقتى للعمل لمدة ساعات أخرى بلا ملل .

كنت دائما أشعر بتوهج فى رأسى دون أن أجد الظروف التى تكفل له التحقق والتشكل فى سلوك محدد وانتاج شىء نافع ومثير . لكن لا شىء يأتى فجأة وإن كانت أمور كثيرة تأتى فجأة . . لكنها فى العادة تعرف عنوان من تنوى أن تهب نفسها له .

ما الذى يمنع أن أكون مخلوقا ربانيا أو أن روحا سماوية تجسدت فى وأنزلنى الله لأمسح على جبين المتعبين من عباده ، وإلا فماذا تقول عن السم الذى وضعه فى الكأس مراد الزغبى زوج رانيا الفاتنة ، ولم أعرف ما فيه إلا بعد أن تركت فى الكأس قليلا وخطفه منى أخوها المفجوع ، فسقط من فوره

بسبب قطرات فى القاع . . والحمد لله أنه أنقذ فى اللحظة الأخيرة ، وأيقنت رانيا أن زوجها هو الفاعل ، فدفعها ذلك لمزيد من الاهتمام بى نكاية فيه لولا أننى أنا الذى شرعت فى نعومة أغلق الباب .

وانقلاب السيارة بنا فى طريق مصر اسكندرية الصحراوى ومصرع السائق وإصابة لاوندى ، أما أنا فنزلت ولم أجد ملابسى فى حاجة إلى أن أزيل عنها حتى رمال ثلاث قلبات .

أما الرصاصتان اللتان أطلقتهما علىّ الراقصة فدوى سرى فلم تصبنى غير واحدة فى كتفى وشفيت منها بعد يومين والثانية ثقبت الكم ، وقد عفوت عنها لتوتر أعصابها ، وأدخلتها مصحة تدفع الجمعية كل نفقاتها . . هذا حقها على .

ألست بعد هذا وغيره مما لم أذكر أُعد بكل اطمئنان إنسانا مدعوما من صاحب الخيمة الزرقاء !

كان من الأنانية المقيتة إذن أن أنهل من الزاد الربانى وحدى ، فرأيت أن أعمل على تحسين علاقة المحدودين بالله . . المحدود ظروفه صعبة ويحس تضييقا عليه فى الرزق أو الحرية أو غيرها من الشئون الخاصة التى تفضى به إلى السخط . . فلا يتعين تركه لثورته وغيظه .

إذا كان المحدود يهاجم الحكومة ويسىء البعض فهمه ، فذلك لأنه يرى بعينيه اللصوص والخونة الذين يثقبون جوال خيراته ، ويدرك أن بعض المسئولين لديهم تخلف مزمن ، لكن ما الذى يمكن لدودى أن يفعله فى مواجهة خيوط العنكبوت الهائلة والمتداخلة والمترابطة التى تحيط به من كل جانب .

بعضهم ــ ولديه الحق ــ لا يجد غير الله ، لأن الشكوى لغيره مذلة . يتساءل عن السر فى استمرار هذه الأحوال ، كالذى يركب البحر الهائج يظل الموج يرفعه ويخفضه وهو بين هذه وتلك يحلم بالنجاة ، يأمل فيها ويتمنى أن يرى الشاطىء يوما ما ، لأنه يثق أن الله يرصد كل حركاته ، لكنه لا يتحرك من وجهة نظر بعض الناس فى الوقت المناسب .

ولكى لا نترك الناس للتفكير الممض فى الله ومهمته تجاه البشر ، والمفروض أن مثل هذه الأسئلة عفا عليها الزمان ، لكنها يمكن أن تتجدد ، وخوفا من أن يؤدى هذا التفكير أحيانا إلى الكفر أو إلى التخريب والتدمير ، فقد أقدمت على إقامة مساجد يتقرب فيها المحدودون إلى الله ولو بالمظاهر أولا إلى أن تصبح عادة . . وتتسع بهذا مساحة الايمان فى القلوب . . فلا تكون هناك شكوى ولا تذمر ولا غضب . . بل رضا دائم ومستقر عن كل شىء .

لابد أن أفتح أمامهم الطريق إلى إعادة صياغة قلوبهم لتغدو قلوبا هادئة فى غضبها ، ينسجم إيقاعها مع إيقاع قلوب المسئولين . . والجمعيات بهذا تحاول أن تطهرهم من الآثام . . على الأقل بالصلاة .

وإقامة المساجد تساعد فى تخريج عدد لا بأس به من المتصوفين والزهاد ، وهو مكسب كبير ، إذ تعود إلى العالم هذه النماذج الإنسانية المنقرضة .

عند افتتاح أول مسجد فوجئت بأحد موظفى الجمعية يقف على باب المسجد ويتأكد من وجود بطاقات الجمعية مع المصلين ، ويرد البعض . أرسلت من يوقف هذا الغبى الذى لايعد وحيدا ولا نادرا .

أصر رئيس مجلس المدينة وهو سعيد بالمنشأة الجديدة على تسمية المسجد باسمى وسبقه بكلمة العارف بالله ، وقد حفزتنى هذه الكلمة على عقد النية على بناء المزيد من المساجد ، ولم أكن أحسب أن بناءها سيكون له فى نفسى كل هذا القدر من الفرح .

أقبل الناس بالمئات يحضرون الافتتاح واضطررت للدخول معهم ، كانوا يتأملون التجهيزات الفخمة . . العمارة الرائعة والزخارف المنمنمة والزجاج الملون والمنبر الخشبى المطعم بالصدف ، والقبلة المعمورة بالآيات القرآنية « ولنولينك قبلة ترضاها » مكتوبة بخطوط بديعة ملونة ، تدور الكلمات حول بعضها وتلتف وتمتد ، تعلو وتعلو ثم تدور حول نفسها فى نعومة وانسجام . . شرع الجميع بشهية يصلون ، ولابد أنها صلاة رائعة ومختلفة فى مسجد طازج يصلى فيه الناس لأول مرة وعيون السماء محدقة به .

وقفت فى مقدمة المصلين مع وزير الأوقاف والمحافظ ورئيس مجلس المدينة وأعضاء مجلس الشعب . . كنت متوترا أخشى الزلل . . ربما لأنها أول مرة وربما هى الثانية . لكن كل شىء مضى بخير ، وتقبلت من جديد التهانى والقبلات من الجميع حتى المحدودين جدا ، كانت قبلاتهم مخلصة ، ولاذعة أفضت بى إلى غيبوبة . . هذا هو العيب الوحيد فى فصيلة « الدودى » الهجوم بالقبلات التى لا تعرف أحيانا إذا كانت إعجاباً أو أنها محاولة لاستمداد البركة .

بعد افتتاح المسجد سافرت مباشرة إلى تونس تلبية لدعوة وزير الشئون الاجتماعية لزيارة المؤسسات الاجتماعية ، وإلقاء عدد من المحاضرات حول تجربتى فى العمل الاجتماعى فى مصر . . قضيت وقتا طيبا فى تونس

وكان ختام أيامه مسكا . . حضرت مسابقة لاختيار ملكة جمال تونس والمرشحة لمسابقة ملكة جمال العالم . . لقد شببت وترعرعت فى صفيحة قمامة ، لكنى أهيم بالجمال كأنى رضعته أو كأنى ولدت على فخذيه الوارفين .

باقة مختارة بحذق من الفتيات الجميلات ، لم أكن أتصور أن نسبة الجمال فى تونس تصل إلى هذه الدرجة . . وخامرنى شعور الأمل والتفاؤل بمستقبل الوطن العربى الكبير .

أما من اختارتها اللجنة كملكة لهن فقد كانت فتاة من الدانتيلا الذهبية . لونها مرمرى . أطلقت شعرها الطويل فبدت وسطهن كفرسة ، فخذاها ممشوقان برهافة كسيفين يلمعان . . طولها حسب ماورد بالكتالوج ١٨٠ سم . . طولى أنا ١٨٣ سم . . فتاة كل مليمتر فيها رائع ومنسجم .
قالوا عنها إنها لاتستسلم لرجل أبدا مهما كان منصبه وأهميته حتى لو كان الحبيب بورقيبة . بل إنها لاتقبل أن يلمسها أحد ولو لمعرفة نوع القماش الذى صنع منه جلدها ، وتجمع الآراء على أنها ستكون الملكة لمدة عشر سنوات قادمة .

جلست معها على العشاء . تأملتها سرا - لقمة ونظرة ممتدة . . طعنة الحساءتلامس شفتى . . المكياج قليل جدا وززقها الجمالى غامر . حركات شفتيها مثيرة جدا عند الكلام . . وأنا أتقلب فوقها ، وموجها يرفعنى ويخفضنى ثم يقذف بى إلى عينيها وفجأة أسقط فى المنطقة القاتلة عند ملتقى الثديين

كان معنا بعض الفنانين ورجال الأعمال والسياسة والسياحة ، هذه المجموعات الأربعة دائما معا بحكم فلسفتهم فى طرح الهموم وحب المال والشهرة والنهل من متع الحياة .

قالت .. إنها ترفض الارتباط تماما ، ولكنها يمكن أن ترضخ إذا وقعت فى حب يوصلها إلى الغيبوبة أو الجنون .

علقت على كلامها بنكتة ضج لها الجميع بالضحك ، وضحكت هى ضحكة فضية متألقة وضحك معها كل شىء فيها حتى ما تحت القطع القليلة التى ترتديها ، وتضاعف جمالها عشر مرات .

تصورت أن بالإمكان عصرها وتقطيرها لتصبح زجاجة عطر أو حبوب عطر تباع فى الصيدليات ، كالحساء المجفف . عطر عزيزة التونسية .

عندما هجم عليها الصحفيون .. قال مرافقى : باظت السهرة سألته . والسبب ؟

قال : ما دام الصحفيون قد شرفوا ، فلن نستطيع حتى النظر إليها .. قم بنا .

قلت : لا .. هذا لا يكون يا رجل .. أصبر .

قال : تحولت البنت إلى مادة صحفية بلا نهاية .. لعبة سهلة فى أيدى الصحفيين هى القاسم المشترك للأخبار والمقالات وبرامج التليفزيون وأغلفة المجلات .

قلت : حقها

مط شفتيه اشمئزازا : رجال الاعلام لا يميلون إلى من كانت قوته داخل رأسه .

ربتُّ على كتفيه مهدئا . . بعد نصف ساعة من السخط المكبوح انصرف . . بقيت أنا حتى خف الضجيج وخلا الجو نسبيا .

دنت منى فجأة وسألتنى عن فريد شوقى ، قلت لها إنه صديقى وسألتنى عن محمد عبد الوهاب قلت لها :

ــ كنا معا الليلة السابقة لحضورى إلى تونس .

قالت وقد بدا أنها تذكرت شيئا هاما : وتونة . . أنا أحبها جدا . بحثت فى ذاكرتى عن واحدة بهذا الاسم فلم أصل إلى شىء . . سألتها : ومن تونة ؟

قالت : فاتن « فاتن حمامة » .

قلت لها : معرفة سطحية

سألتنى عن صلاح أبو سيف وشكرى سرحان

قلت لها وأنا ابتسم مزهوا : كلهم أصدقائى وعمر الشريف أيضا وعبد الحليم طبعا قبل رحيله .

صرخت فجأة : أرجوك لا تذكرنى بعبد الحليم . . كل تونس بكت عليه وطلعت الجنازات من كل مكان . .

تحركت شفتاها حركة ذات معنى ، بدا منها أنها فرحة بتعرفها على . . قال أحد الأصدقاء : الأستاذ غريب صحفى وصاحب جريدة فوق كونه رجل أعمال ورئيس مجلس ادارة عدد من الشركات .

قالت وهى فى شبه شرود : أحب السينما المصرية . . أموت فى الأحياء الشعبية والأحداث التى تجرى فيها وخفة دم الممثلين .

قلت لها : أقترح عليك زيارة مصر فى أقرب فرصة

قالت وهى تتنهد : أتمنى ذلك جدا يا أستاذ غريب

قلت لها : ما دمت تتمنين ذلك فسوف تزورين مصر وتمثلين أيضا هناك .

عندئذ ضحكت عاليا ، ضحكة فرح وأمل وقد بدت ملامح نافذة جديدة من نوافذ المجد ترتسم أمامها وعلى وشك أن تفتح .

بدأت أحس بأن مقود الحديث فى يدى ، وأن مقود رأسها هى نفسها ملكة جمال تونس يبدأ أوله عندى .

شرعت تضحك على كل كلمة ، ووجهها يضىء مع الشراب الذى تغلغل فى جسدها وتمشى فى عينيها وعلى جلدها الذى كسته الأضواء الخافتة ألوانا أسطورية وبدا جسمها نقطاً من اللحم المشبوب .

حاولت معها كى نكمل السهرة وحدنا فى مكان آخر ، لكنها أفلتت بلباقة ، ووعدتنى بسهرة فى اليوم التالى . . ودعتها على مضض وكنت قد شرعت أعد للحظة التى ستلقى بها بين أحضانى . . كدت أعتبرها إهانة لى وخيبة منى ألا تكون معى ، آكل على مائدتها وأشرب حتى الصباح دون أن أبقى منها شيئا ، فمثل هذه المخلوقات لا يتعين الإكتفاء بمجرد لمسها بحنان ، الأفضل تمزيقها بجنون ووحشية وارتشاف رحيقها كله والتهام لحمها كله ومصمصة عظمها كله ، وعدم رمى الباقى وإنما رشه على الصدر حتى ينمو من جديد ، ويلتحم ويتجمع ويتشكل ويعود كيانا رائعا يسعد الغلابة ورئيس جمعية الغلابة .

فى نهاية الليلة التالية وبعد سهرة شاعرية حالمة تألقت فيها ، واستعنت بكل أسلحتى وثقافتى . . اتفقنا على الزواج . . لأن ذلك فى الحقيقة كان قرارا أصدرته منذ أول يوم رأيتها فيه .

سافرنا إلى باريس بعد يومين . . قطفت الثمرة قبل أن تسقط ، وعدت بها إلى القاهرة . . لقد قاسيت فى حياتى ومن حقى وحق غرائزى أن تنال ما تتمنى .

كتمنا الخبر لولا أن عرف به الوزير ، وهو فى غمرة حرب ضروس مع أعضاء الجماعات الإسلامية . . إحتشد لهم ونزل فيهم ضربا قبل أن يتفرغ لى .

لحسن الحظ أنه بالغ فى عنفه .. أيام قليلة وطالعتنا الصحف بخبر إقالته ، وكان خبر زواجى قد ذاع ، فنشر الخبران معا وأسقط فى يدى ، فلم أستطع التكذيب ، كما أنى لا أميل للاحتفاظ طويلا بالأسرار .

●

إس . ترب . تيز

أى دودى مهما كانت أسرته متحفظة أو حتى متزمتة يتمنى أن يدخل السينما أو المسرح ليرى فخذ امرأة ولو كانت غير مشهورة ، ولا بأس أن يرى ذراعها أو إبطها ، وربما يرضى ـ لأنه دائما يرضى ـ بالتطلع إلى الشفاه أو العيون والشعر المتهدل .

ويكفى البعض أن يرى مشية ممثلة ، أو هزة من كتف عار لممثلة إغراء ، أو ساقابيضاء بضة يبنى عليها مشروعا خياليا لا ينتهى ، ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بآخر الحدود التى يمكن أن يصل إليها فى تفكيره الجائع دائما بوصفه حيوانا مهما كان محترما . .

إن دودى لا يفكر فقط فى الطعام الجيد والشراب والنزهة ، يفكر فى المرأة والحب والجسد والجمال ، وبعضهم يصل فى تأملاته إلى الإكتفاء بالحقد على الأغنياء لأنهم يستطيعون أن يعثروا ويمتلكوا الوجوه والاجساد الجميلة .

لذلك يجب أن يتوقف نسبيا خيال المحدود عن التفكير فى النساء حتى ينتبه لعمله وبيته ، يجب أن يجد أجمل الجميلات أمامه وبالقرب منه ولو

بالمشاهدة ، وليطمئن الذين يتصورون أن ذلك سوف يدفع دودى لمزيد من الاستفزاز ، الحقيقة أن هذا لا يعنى إلا تنفيس جزء من البالونة ، كما تفعل الحكومات أحيانا عن طريق الصحافة ، إذ تترك للناس الفرصة لإبداء الرأى ولو ضدها ، لأنها لو منعتهم تماما وخاصة أيام الأزمات ستحدث ثورة ، وهى بهذا تفتح نافذة يدخل منها الهواء الجديد ويخرج الملوث ، وتنقذ الصدور من الكبت والشعور بالحسرة والكمد .

إن قناعتى العميقة وإيمانى الراسخ بقضيتى الوحيدة يدفعانى للبحث عن حل لكل ما يؤرق هؤلاء الناس ، ويشغل فكرهم ويدور بخواطرهم ، أو حتى يظهر فى أحلامهم ولذلك نويت وعزمت على أن أقدم لهم عرض استربتيز . . نعم إس . ترب . تيز .

أعرف أنها مغامرة كبيرة والمقاومون بالآلاف ، والجهات المختصة المستعدة لا للهجوم علىّ بالتصريحات ، بل بقتلى وهدم المعبد كله على من فيه ليست قليلة ، وليس من اليسير اجراء الحوار معها .

لكن الفكرة تدق رأسى بعنف ، « ودودى » يسكن قلبى . . هذه هى الصورة التى لاتريد أن تفلتنى وأنا شخصيا لا أريد أن أفلتها . لأنها تحقق جزا كبيرا من الراحة النفسية للمحدودين . . أحبائى وأمل حياتى .

لا أريد أن تقوم بالعرض أى امرأة ، فمن الممكن أن ترضى آلاف النساء ، وربما بلا مقابل ، ولكنى أريد أن تقوم به أجمل النساء فى نظر الناس ، لماذا لاتقدمه الممثلة الشهيرة آسيا كمال ذات الجسد العربيد ولماذا لاتقوم به غريمتها نجمة السينما العربية نادية سرور ، وهى حقا ساحرة ، ويفضل لو اشتركت الراقصة الأسطورية ليلى غندور ، واذا وافقت نجوى

السيوفى قطعة الشيكولاتة الأثيرة ، فسوف يحملنى « دودى » إلى عنان السماء وربما ألقوا بى إلى الجنة مباشرة .

قَلَّبت الصورة فى خيالى وأعدتها على نفسى ليال طويلة . . إن السعادة تتسلل إلى روحى من مجرد التفكير فيما سأحققه للمحدود . . سيكتشف أنه وقت يشاء يستطيع أن يرى آسيا كمال بجلالة قدرها رؤية العين ، ويمكنه أن يرى كل تفاصيل جسد البنت الصاروخية نرمين حمدى .

إنكم لا تتصورون ما أحس به ، وما سوف يحس به المحدود ، ذلك الذى يتبدد عمره فى البؤس وقلة الزاد وهوان الحال وقصر الذيل حتى يشعر شعوراً مدمراً بالدونية والضآلة ويتراكم الحقد ويتكدس الإحساس بأنه وحده هو المضيع والمحروم . .

ولا يتعين أن يغيب عن فكرنا إمكانية أن يكتشف المحدودون أن جسد أى واحدة من هؤلاء الشهيرات اللائى تُعلَّق صورهن على الجدران ، ويتطلع إليهن الجميع بشبق وبلاهة ، لا تختلف أجسادهن ولا أشكالهن عن نسائهم المرميات فى البيوت ، وقد انقصمت ظهورهن من العمل والحمل والرضاعة والغسيل والقهر والنكد .

إنه التطهير ونزع فتيل السخط على العالم ، وعلى قياداته المترفة التى لا يراها إلا فى التليفزيون ، وإذا رآها فإنه يراها حمراء متوردة متمتعة بالصحة والهناء والرضا . . لا تلمس الأرض إذا مشت ، ولا تلبس مثل ما يلبس ولا تعرف الطوابير ، ولم تسمع مطلقا عن شىء اسمه الأسعار ونقص بعض السلع الضرورية .

المسألة مع ذلك ليست ناعمة أو هينة . . إن قبول احـدى الممثلات المشهورات أداء العرض المطلوب سيرتبط ولاشك بطلبها مبلغا كبيـرا من المال ، والمحدود لا يستطيع ولا يجب أن يدفع عشرين أو ثلاثين جنيها ثمن تذكرة ، لأن الممثلة أو الراقصة ستتقاضى عشرة آلاف جنيـه مثلا ، ولن يحضـر الحفل أقـل من ألف بالاضـافة إلى مصـروفات كثيـرة كالـدعـايـة والمطبوعات والإنتقالات وإيجار المسرح والعمـال والمجامـلات واستخراج التصاريح . . . . والحراسة والضرائب .

إنتهيت مع نفسى وقبل عـرض الفكرة عـلى المستشارين إلى تخفيض التذكرة إلى عشرة جنيهات للمحدود وخمسين جنيها لغير المحدود ، على أن نعوض الفرق بالاعلانات . وتصوير الفيديو مقابل الف جنيه للساعة ، مع السماح لبعض الشركات العالمية بالاعلان عن منتجاتها على القطعتين اللتين ستبقيان على جسد العارضة ، وليس من الواجب تركها حتى تسقط عنها كل أوراق التوت ، ولا علاقة للجمعية بالإتفاقات الشخصية بـين المحدودين والعارضة .

أصبحت الفكرة بعد تقليبها على جوانبها المختلفة أقرب إلى سهرة ثقافية وفنية تتضمن مونولوجات ونكتاً ، موسيقى شرقية ـ عرضا جسديا أول . شعرا . موسيقى غربية.عرضا جسديا راقصا . نكت . أغنية .

فى محاولة مبدئية للحوار واستكشاف العـالم المادى . . طلبت نجـوى السيوفى خمسة آلاف دولار مقابل اشتراكها فى العرض عن كل ليلة . . قلت هذا للمستشارين ، فقال أحدهم :

ــ أنا أطلع بدلا منها ياباشا .

خفيف الظل حقا ولكن هذا لا يكفى كى أذكر اسمه فيدخل التاريخ ، والتاريخ ليس لعبة لكل من هب ودب ، إنه مسئولية ، ويعرف ذلك كل من أخذوا نسخا من مفاتيح التاريخ .

إنهم قلة فى العالم ولابد أن يكونوا كذلك ، فى مصر كلها سوف تجد اثنين على الأكثر معهما مفاتيح ، أنا أحدهما ولن أذكر بالطبع اسم الآخر لأنها مسئولية ، ولكى يعمل خيالكم طوال أعماركم للبحث عنه . . ولن تعرفوه .

قَلَّبت كلام المستشار فى رأسى لاحظت أنه ذو دلالة . . لماذا تأخذ خمسة آلاف دولار لمجرد أن تخلع ملابسها . . ما عدا القطعتين الأخيرتين . . إذن كم سآخذ أنا شخصيا لو قررت خلع ملابسى .

مشكلة حقيقية . . لكنى لا أقبل إلغاء الفكرة أو تحميل دودى فوق قدرته لقاء متعته . إنه شاغلى الأول ، وحتى أبنائى الذين تدفقوا واحداً وراء الآخر بلا كلل من سلسلة ظهرى إلى هؤلاء النسوة اللائى حدث وتزوجتهن . . عاشت سلسلة ظهرى . . والموت لكل السلاسل . . أولادى الذين لم أعرف عددهم لا يشغلون بالى ، لديهم كل ما يحتاجون إليه ، وأمهاتهم هن المسئولات تماما عنهم . . هكذا اتفقت معهن . .

ـــ حذار . . ثم حذار . . واحدة تشتكى من شىء أو ترسل لى ولدها مهما كانت مقدسة المناسبة التى تجمعنى بها . أنا متفرغ تماما لدودى وليس فى العالم كله أهم منه عندى . . عندكم مستشارى العائلى وهو مسئول عن كل ما يخص توفير لوازمكم وطلبات الأولاد وتعليمهم وأخطائهم وحوادثهم وحتى زواجهم . . لا مجال للعبث فى مشروعى ، ومن يحاول بينه وبين

النجاح سأسحقه . . لقد خلقنى الله للمحدود وهى رسالة . . لابد من احترامها وقبول كل أعبائها بلا سأم . . هذا هو قدركم .

إتصلت بنادية سرور فصرخت مستنكرة عريها أمام الناس ، وأصرت على أن أسحب عرضى فورا ، وإلا فإنها ستتخذ من الآن إجراء وقائيا بإبلاغ كل الصحف بالقصة . . سحبت دعوتى وكتمت غضبى .

وافقت آسيا كمال على العرض بشرط أن يعلن أنه إهداء منها للمحدود ين ، واحساسها بالسعادة لخدمة وارضاء المحدودين . . يجعلها تشارك فى هذا الهدف النبيل بلا أى مقابل ، على أن تأخذ فقط عشرة آلاف جنيه .

لم أنم حتى جاءنى الإلهام قرب الفجر . إتصلت بأحد معاونى ، ومؤكد أنه لعن أجدادى . . فى سِرّه طبعا . . وكلّفته بأن يُحضر لى الآن . . نعم الآن أحسن ريجسير فى مصر . . الرجل الذى يجمع الكومبارس لأفلام السينما .

جاء « الريجى » فطلبت منه أن يبحث لى عن عدد من الفتيات يشبهن تماما أشهر ممثلات السينما ، ولم تمض ثلاثة أيام حتى جاءنى الريجى بالمطلوب ، بشكل جعلنى لعدة دقائق مذهولا من دقة التشابه ـ ومن كل ممثلة ثلاث نسخ على الأقل . . شىء مبهر حقا .

جمع لى أكثر من مائة بنت ، منهن الشبيهات ومنهن غير الشبيهات ، لكن السمة الأولى والوحيدة هى الجمال الطبيعى الفائق . . مررت عليهن واحدة . . واحدة . . حدقت فى وجوههن . . العيون الجميلة . . الخدود الممتلئة صحة وحيوية . . الأجساد العفية مشدودة الجلد ، الرشاقة . . كل

هذا الجمال مِلْكى . . والله إن خلق النساء هو قمة الإعجاز والعبقرية .

فرحت لأن جمال بنات مصر لا يقل عن جمال بنات تونس أو الدول الأوربية التى سال لعابى على بناتها وتحسرت على حالة الجمال فى مصر .

عرضت عليهن القيام بالمهمة - رفضت بعض الفتيات ، وقبل البعض ، وكان العدد الذى قبل كبيرا بما يكفى لعدة عروض فى مختلف أنحاء الجمهورية .

إنتشرت الإعلانات فى كل مكان عن السهرة الثقافية التى ستقام فى حى الأميرية بعد شهر ، وفيها صورة رائعة لآسيا كمال .

أقبلت الجماهير إقبالا لا يوصف . . لم يكن هناك سنتيمتر واحد فارغا . . سمحنا بالدخول لمن لم يجد تذاكر على أن يقف أو يجلس على الأرض وقطعنا لهم تذاكر جديدة طبقا للنظام المعلن .

استمتع المحدودون وغير المحدودين بالمونولوج والمهرج والأغانى والموسيقى ، ولم يفهموا - إلا قليل منهم - شيئا من الشعر ، وكانوا يهللون كلما ظهر بعض لاعبى الكرة للتقديم ثم كتموا الأنفاس عندما ظهرت آسيا كمال .

شرعت تتلوى فى حركات راقصة ، والإضاءة تتبدل عليها وتتبعها فى رهافة وجمال من خلال تكنيك خاص أعده خبير ، والموسيقى تواكب كل حركة وتمهد لها وتحاول لمس جسدها العريان ، وبعد عدة دقائق من الرقص الذى بدت فيه آسيا كأنها تحكى قصة اختطافها على أيدى رجال أغاروا عليها ، واستطاعت التخلص منهم ثم سعت إلى حبيبها وله فقط رضيت أن

تتخلى عن ثوبها المبهر قطعة قطعة ، وبين كل قطعة منزوعة وأخرى تؤدى حركات فنية بارعة ، فى سلاسة تطلق القطعة إلى الفضاء تاركة مكانها منطقة متألقة من اللحم الأنثوى المثير ، والاضاءة الخبيثة تتبعها وتنقش الضوء على جسدها بحدة ماكرة تفجر الإعجاب الأثيم .

كانت البنت العارضة ورفيقاتها اللائى قبلن قد خضعن لتدريب مكثف على يد خبراء لمدة شهر كامل ودون توقف . ونجح العرض وانبهر الناس وأغلبهم من الرجال الذين لم يفصحوا لذويهم عن الحفل ، وظل كثير منهم على يقين أنها آسيا كمال ، حتى أن بعض الصحف كتبت عن الفنانة الكبيرة وجمالها الفتان ، وقبولها بدون أجر أن تقدم عرضا ترفيهيا لفئات الشعب المطحونة .

قبل العرض حضر ضابط شرطة ، وطلب مدير المسرح ومندوب الجمعية للتحقيق فى بلاغ قدمته آسيا كمال يتهمهما بزج اسمها دون علمها فى هذه العروض ، ويطالب بوقف العرض .

كنت بالطبع قد احتطت للأمر ، وكلفت نجيب حتة المحامى الكارثة الذى تضاعف مرتبه عدة مرات خلال سنوات قليلة بالاستعداد ، ووعدنى حتة بأن أرى منه الأعاجيب على أن ينال ١٠ ٪ من صافى الإيراد فوافقت .

عرض نجيب على الضابط ما يُكذِّب دعواها وأثبت أنها كانت تعلم ، وحصلنا على موافقتها وهذه هى العقود ، ولكنها اعتذرت فى آخر لحظة ، ولم يكن بالاستطاعة انتزاع الإعلان من كل مكان ، وطبع غيره فأحضرنا البديل .

فوجئت آسيا ومحاميها بالعقود فطعنوا بـالتزويـر . عرضت المحكمـة العقود على خبير خطوط ، وجدها صحيحة . . كَلَّفت المحامى برفع دعوى تعويض مقدارها نصف مليون جنيه .

طَعَنَت وخَسِرَت واستأْنَفَت وخَسِرَت ثم طَلَبَت الصلح ، فوافَقْت . . أُقيم عرض ثان وثالث حسب الخطة الجهنمية ، وكانت العقـود والشهود ينتظرون المعترض . وسَعِدِ أحبائى المحدودون . . دون ، وامتلأت خزائن الجمعية بالأموال وعُمِّرت منازل كثيرة ، ولأنى لست من هواة جمع المال ، فقد كان نصيبى متواضعا للغاية ، بل كان إنسانيا للغاية إذ قمت بتعيين كل الفتيات الجميلات فى الجمعية ، على أن يُندبن للعمل فى قصرى الزجاجى ليكُنَّ دائما أمامنا ، ورهن إشارتنـا لتقديم العـروض ، وغير العـروض ، ولحمايتهن من بلطجية الفنانات المشهورات والأدوات الحقيرة للإنتقام من أعدائهن ، مثل ماء النار يُقذف على الوجوه الفاتنة ، فيأكل الوجه ويفتك بالعيون ويمسح الأنف من الوجود ، ويشد الذقن إلى الجبهة بقسوة تعجز عن تحملها الشياطين .

زادت خبـرة الفتيات مـع كـل عـرض وتـزايـد الإقبـال ، وتنـوعت البرامج . . أضيفت فقـرات وحذفت فقـرات ، واكتشفت مواهب فنيـة ورياضية وهواة ألعاب سحرية ومهرجين .

تضاعف الإقبال عـلى صحيفة « دودى » لأنها تتـابع بـالصور وتنشـر الأسرار والأخبار وما يجرى فى الكواليس وانطباعات الجمهور ، وأصبحت أسبوعية لعدة أشهر ثم تَطلَّب الأمر أن تكون يومية ، ولم يعد باستطاعة من يستيقظ فى الثامنة صباحا أن يحصل على نسخة رغم طباعة مليون نسخة .

مهرجان رائع من العمل والحركة والفن والجمال . . والشهرة والمتعة وأيضا . . المال .

مع كل عرض نكتب فى الإعلانات عن فقرات فنية وعروض عارية للممثلات ، وراقصات شهيرات . . عروض لأجمل الجميلات (دون ذكر أى اسم)وكان بامكان المشاهدين أن يدركوا أن التى تقوم بالعرض هى نجوى السيوفى أو نرمين جهدى أو غيرهما من شدة التشابه والتدريب الدائم على تقليد حركاتها وتسريحة شعرها وزينتها وطريقة نطقها ومشيتها ودلعها وطريقتها فى تحية الجماهير ، فضلا عن البراعة فى الأداء وهذا ما تعجز عنه تماما ممثلاتنا الشهيرات .

●

الحجاب

تلقيت دعوة للمشاركة فى افتتاح مشغل لتدريب الكفيفات على مختلف الأعمال الفنية كانت جمعياتنا قد أسهمت فى تأسيسه .

ذهبت وحدى إلى العنوان . كان عبارة عن بيت قديم ضخم . . طرقت القبضة الحديدية للباب الخشبى الكبير المحفور عليه سبع يحمل سيفا وله وجه إنسان وذيله مرفوع إلى أعلى فى مقابل السيف .

بعد لحظات فتح الباب رجل أسود أنيق يرتدى بدلة سوداء له أنف كبير وفم واسع مفتوح وأسنان بيضاء لامعة . أومأ لى باحترام وابتسم ابتسامة رضية . تقدمنى فلاحظت أن له ذيلا أسود طويلا وقدمين صغيرتين حافيتين .

مضى بى إلى حديقة مملوءة بالزهور ، وفى وسطها نافورة . . طلب منى الإنتظار ريثما ينبىء السيدة مديرة الدار بحضورى واختفى بين الشجر . وما أن عادت نظراتى التى كانت تتبعه فى دهشة حتى التقت بمنظر فريد .

آلاف الفراشات الملونة يزدحم بها الفضاء المنير . الألوان غريبة ورائعة ، وعلى الأجنحة رسوم هائلة الجمال ، لا تشبه فراشة منها الأخرى .

أحاطت بى جميعها فى دائرة منتظمة . تراقصن قليلا وصدرت عنهن بعض الأنغام الخافتة . . ولأول مرة أستمع إلى موسيقى من قلبى بعد أن تسللت وتغلغلت فى روحى . . كان لها على سحر وتأثير . . موسيقى لها رائحة ونبض ومعنى ونعومة ، تلمسنى وتدغدغ عظامى وتتسرب .

هذه هى الموسيقى اذن التى تبهر ، وأسمع عن استيلائها على العقول ، وقد استولت علىّ ويمكنها أن تفعل بى ما تشاء .

هبطت الفراشات تدريجيا إلى الأرض ، ضمت جميعها الأجنحة ، ثم تحولت فى لمح البصر إلى خنافس بنفس الألوان . . لولا أنها بدت ذات ملامح قاسية يفزع لها القلب .

تقدمت الخنافس بخطوات واثقة . مستحيل . . كلما تقدمت الخنافس خطوة كبرت قليلا . . كبرت كلها بانتظام وفى وقت واحد ، حتى أصبحت عندما أوشكت على لمسى كالقطط .

تماسكت إلى آخر لحظة وأنا أبحث عن منفذ ، لم أستطع أن أقفز إلى ما وراءها . . كانت كثيرة جدا ، وتكبر بضراوة وتدمدم بصوت خفيض ، لكنه واثق ومنظم وشرس . تتجه نحوى كأنها عازمة على إلحاق الأذى بى . . عيونها تكبر وتتسع وتبرز من أجسادها وتلمع بوحشية . . لم أجد ما أدفعها به عنى . ولم أستطع أن أقاومها بأقدامى . ثم صَرَخْت .

صرَخْت صرخة واحدة مدوية . . سقطت بعدها فى النافورة ، وإذا بها قد أصبحت بحرا عميقا فتح صدره ليستقبلنى . ظللت أهبط . . أهبط .

وفى اللحظة التى أيقنت أن الهبوط سيظل هكذا إلى الأبد . إرتطمت بالقاع وساد صمت تعس . خاصة بعد أن تحطم جسدى تماما .

وعثرت يدى أخيرا على شىء أمسكته ونظرت إليه .

كان لفة صغيرة جدا ومطوية كالحجاب .. هو حجاب بالفعل ومعلق بخيط مقطوع .. تذكرت أن هذا الحجاب كان لى ، أعدته لى جدتى مكاسب وعلقته فى رقبتى وأمرتنى .. نعم أتذكر .. أمرتنى أن أحلف على الختمة ألا أخلعه أبدا .. لكننى قطعته فور خروجى فى الفجر تاركاً بركة السبع ..

قطعته وطوحته كما طوحت من قبل علبة الجاز التى أعطتنيها فنارة ، وتبولت فيها .. ها هو حجابى .. لماذا عاد .. إرتعد جسدى من هول المفأجاة وأحسست بالرعب .. لماذا عاد ؟ .. ومن أعاده .. ولماذا هنا فى هذا الموضع من القاع .. القاع المجهول .. أين أنا ؟

عندما صحوت .. أخبرت زوجتى .. التى كانت تهزنى فى تلك اللحظة .. زوجتى تقيم فى الاسماعيلية .. لا .. ربما التى تقيم فى مرسى مطروح .. نعم هى التى فى مرسى مطروح .

قالت : أبشر . تخلصت من شر كبير بعد ما تزوجتنى والخير قادم .. والله قادم .

التكريـــم

مع أول سطر من سطور الخطاب الذى وصلنى من سكرتير عام الأمم المتحدة بدأت أشعر بالغبطة الحقيقية . . غبطة متوهجة تحملنى عن الأرض حملا وتملؤنى بالبهجة التى لم أشعر بها مطلقا . كنت أحس أن المشوار لازال طويلا والعمل لم يكتمل بعد . لقد انفتحت شهيتى للمشروعات وللمال وللمجد ، وتجددت الآمال . بدا لى أن المجد يلد مجدا والمال يلد مالا ، والأيام تتوالى ونحن نصعد فى ثقة درجات السلم ولا نعبأ بالمشكلات .

أكثر ما كان يعنينى هو علاقتى بالحكومة التى حرصت على تسهيل مهمتى والاستجابة للأفكار التى أطرحها ، ولذلك رددت الجميل بأن ابتعدت تماما عن لعبة السياسة والأحزاب والوزارة ومجلس الشعب وغيرها . . لأننى أومن أن العمل الحقيقى يجب ألا يخضع لإطار ، عليه أن يكبر ذاتيا ثم يفرض إطاره . .

« إن ما تحقق فى مصر هو بكل المقاييس عمل عظيم وخالد ، ومن أبرز ما أنجزته البشرية لخدمة الإنسان الذى يعانى الكثير فى العالم الثالث ، وحرى بالتقدير والمساندة من كل دول العالم ، بل ويتعين احتذاؤه إذا أردنا

للعالم أن يكون أجمل وللإنسـانية أن تكـون أسعد . . وتحية خاصـة لك بوصفك أحد الرجال البارزين الذين أسهموا فى تخفيف معاناة الإنسان .

ويسعدنا أن ننهى إليكم قرار المنظمة الدولية للإرتقاء بالإنسان التابعة للأمم المتحدة والمشكلة بموجب القرار رقم ٤١٩ لسنة ١٩٨٤ الذى يقضى باعتباركم رجل العالم عن هذا العام .

وقـد تم إبلاغ جميـع حكومـات العالم والمنـظمات الـدولية والمحليـة والمؤسسات الرسمية والشعبية بهذا القرار ، ومرفق لسيادتكم نسخـة من الكتاب الذى وزع بهذا الخصوص ، ويتضمن لمحة عن حياتكم الفـريدة وجهودكم الفذة فى خدمة ذوى الدخل المحدود فى مصر .

وإذ نأمل أن يفيد من جهودكم الدائمة الملايين والملايين من ذوى الحاجة فى العالم أجمع نرجو لكم التوفيق والسداد ، ،

نشرت الخبر كـل الصحف بلا استثنـاء . . وتلقفته وكـالات الأنباء احتشد حولى المراسلون والمصورون ، وحوصرت فى كل تحركاتى بالأسئلة والتسجيـلات والكاميـرات التليفزيـونية . . التحقيقـات والحـوارات . . صورى تملأ الصحف وتتصدر الصفحات الأولى فى مصر والبلاد العـربية والأجنبية .

وصلتنى مجلات وصحف كثيرة بلغات لم أسمع بهـا ، ولم أعرف من كتابتها حرفا إلا صـورتى المنشورة فى كـل صفحاتهـا تقريبـا ، وبأوضـاع مختلفة . . شرعت العائلة الكريمة من جديد فى الظهور . . تركتهم يظهرون ويحومون كالذباب ، ولحق بى نسائى وأولادى الذين لا أعرفهم عـلى وجه الدقة . . تركت الجميع يظهر ويتحدث وينتشر والهوجة لا تتوقف والصحافة

تطبل والمحللون يدرسون الظاهرة . . البعض يؤيد ويحكى عن المجد الذى تحققه مصر كل يوم فى مختلف المحافل . . مصر الولود التى لا تشكو من العقم أبدا ، وآخرون يحرضون أساتذة الجامعات على الدراسة وتأمل التجربة ، والبعض يسأل عن دور الوزارات المعنية وعجزها فى كثير من الأحيان عن عمل إنجاز مثل إنجاز الجمعيات العامة لخدمة ذوى الدخل المحدود « دودى » ، وتحدث الكثيرون عن ضرورة قيامى بالتدريس فى الجامعات بوصفى أستاذ لمادة « دودى » . .

« دودى » أصبح على كل لسان . . ومطبوعة صورته على القمصان والعملات الصورية والميداليات . . وتألق « دودى » فى اللافتات بجبهته الفارغة ورأسه المرفوعة والشمس تشرق من ورائه .

أنا وولدى « دودى » نملأ كل الصفحات ، ونشغل كل المساحات ، ومشروعاتنا بالتفصيل تعرض فى الصحف ، تتم الحوارات مع الناس الذين يأكلون فى محلات الفول والطعمية بالمجان . . ومحلات الكشرى والعدس . . يتحاورون مع الذين يستحمون فى حمامات الجمعيات . . بالمجان ، ويلتقون بالراكبين بالمجان فى المواصلات التى خصصتها الجمعية ، وزاروا مكاتب الزواج ومقابر الصدقة والمساجد ، وكتبت الصحف جميعها عن « دودى » الذى يعيش فترة من أزهى أيامه بفضل عبقرية العبد لله . . « دودى » الإنسان الجديد المنطلق من القبر المظلم . . وتبارى الشعراء فى وصفه كأحد أحلام البشرية وتوالت الرسوم الكاريكاتورية تصورنى وأنا أحمل دودى على كتفى ، أو أجره كطفل من يده وأشترى له اللعب والحلوى ، وشرع كتاب السيناريو فى إعداد أفلام تسجيلية وروائية عن « دودى » ولا بأس من الإعتراف أننا استثمرنا تماما

هذه الفترة بالمطبوعات والألعاب التى عليها « دودى » : كوتشينة . مضارب وكرات قبعات وأعلام . كراسات وعطور . أدوات زينة . . وانتشرت جريدة « دودى » . . تجاوز توزيعها المليون فى اليوم الواحد وانهالت الإعلانات والاشتراكات .

قررت الحكومة مشكورة تنظيم احتفال كبير لتكريمى ، دُعى إليه عدد من الرؤساء والملوك والوزراء فى العالم . . وقبل أيام من الموعد المحدد وصلت الوفود من كل الدول للمشاركة فى الاحتفال العالمى الذى اتفقت كل الآراء على إقامته باستاد القاهرة الدولى .

توالى وصول الشخصيات من كل أنحاء العالم ، ولم يصل من الملوك والرؤساء غير ملك دولة دوستاريا العظمى وعدد من رؤساء الوزارات والوزراء ، وشخصيات كبيرة من المنظمات والمعاهد العالمية . . شىء لا يمكن وصفه . . .

بدأ الاحتفال بمسيرة شعبية فى شوارع القاهرة يتقدمها وجهاء العالم وأنا بينهم لولا أن أصر ملك دوستاريا الذى تجاوز الثمانين من عمره على أن ينزل إلى النهر ليسبح لأنها عادته قبل كل احتفال ، ونزل جميع الخلق وراءه مهللين هاتفين بحياة الملك الرياضى ، داعين له بطول العمر وحياة مديدة يفدونها بالروح والدم . . وتذاكر الناس وهم مبللون بالمجد محاسن الرجل البسيط ، الذى رضى أن يسبح معهم فى نفس الماء الذى يسبحون فيه ويتبولون ، ويشربون ، ومن قبلهم سبحت البهائم وبالت ودفنت أيضا ، وقال أحد المحيطين بنا : إنها بساطة القديسين .

نزل خلفه رئيس الوزراء المصرى وكان رئيسا للوفد المرافق ، وبقية رؤساء الوزارت والوزراء والمحافظون وغير المحافظين بأفخر ملابسهم ـ بينما

سبقهم عشرات من رجال الحرس الملكى وفى أيديهم أجهزة اللاسلكى . مد الملك يده واصطحبنى فنزلت معه وأنا أتذكر النهر الصغير فى بركة السبع ، والترعة التى كانت تطل عليها مزرعة الوسيمى

كنا جميعا بملابسنا ما عدا الملك ، الذى كان يلبس روبا ملونا عليه تنين ، وقبل أن ينزل إلى الماء فك حزامه فأصبح فى ثانية عاريا إلا من قطعة واحدة . .

وقد بلغ من حرص أحد الحرس وخوفه على الملك أن دنا منه أكثر من اللازم حتى اشتبك إيريال الجهاز الذى معه فى لباس الملك ، ولم يتمكن من تخليص الإيريال إلا بعد أن تعرت المؤخرة الملكية .

أسر رئيس الديوان الملكى إلى رئيس الوزراء الذى لم يكن يرى تحت الماء شيئا بسبب التهابات دائمة فى عينيه لا تمكنه من الرؤية فوق البر بأن الملك سيخرج من الماء فى الضفة الأخرى ليستريح . . تناقل كل الأشخاص هذا الخبر .

أسرع الوزراء نحو الضفة واصطفوا ليكونوا فى استقبال الملك يتصببون ماء وأمتثالا ، لكن الملك والشعب وراءه أراد أن يثبت أنه قادر على العودة مباشرة دون راحة ، فأسرع الوزراء والمحافظون والضيوف الكثيرون ذوو البشرات المختلفة والملابس المتباينة يقفزون إلى الماء ، وكانوا يتمنون أن يعودوا فى الزوارق المنتظرة .

إندفعوا برغم بطونهم الثقيلة ليسبقوه ، وهو نفسه أدرك ذلك فتمهل لحظات حتى يصلوا إلى الضفة الرئيسية واصطفوا فى انتظاره مبللين من جديد بماء النهر الخالد .

طلع الملك زاحفا يرتجف كالفأر المسلوخ إلى أن ارتمى على الأرض وجماهير الشعب التى تسد عين الشمس من ورائه ، أسرع إليهم الحرس المدجج بالسلاح فجأة وقطعوا الطريق وأشاروا عليهم بالصعود من مكان آخر .

حمل الحراس الملك ليمر بين الضيوف والمستقبلين وهو سعيد بآثار عادته الملكية على ملامحهم وقد ضرب لهم مثلا فى فن الحكم والزعامة .

إندس الجميع فى السيارات يكحون ويعطسون ، وتحرك فول السيارات الفارهة نحو الاستاد

مهرجان ضخم تنوعت فيه العروض وسارت فيه مواكب تضم قافلة الخدمات التى تقوم بها الجمعيات . . عربة كبيرة على شكل قدرة فول يتقدمها نموذج كبير لدودى وبعدها عربات ترمز لمختلف المشروعات . . وتوالت العروض الرياضية والفنية والترفيهية والأشعار والكلمات الرسمية والشعبية ثم كلمتى . . وبعدها تسلمت وسام الأمم المتحدة وشهادة تقدير بماء الذهب . . مان أوف ذاوورلد . . وضجت الجماهير بالهتاف . . دودى . . دودى

نزلت إلى أرض الإستاد . . حيث ركبت سيارة مكشوفة دارت بى لأحيى الجماهير المحتشدة الفرحانة فرحا جنونيا بأحد أبنائها ، وما أن انتهت جولتى حتى انطلقت البالونات تحمل نموذجا لدودى وهو يحيى الجماهير ويبتسم مستمتعا بسحر البلوغ ، بعد أن أوشك أن يصل إلى عنان السماء .

إننى أرتجف من شدة الابتهاج والسعادة التى تضمنى فى صورة واحدة مع هذا الشعب الحائر الذى لا يكف عن التفكير فى أيام تعسة وأيام جميلة . .

تُرى . . هل ترينني الآن ياصاحبة الوجه العنبرى وأنا أصعد قمم أحلامى الجسورة بينما تندفعين سريعا فى رحلة الإنطفاء . . ألا ترين أنك لا تغلليني . . نعم لا تغلليني إننى أمضى كما أشاء إلى فردوسى الخاص .

وأنتم إذا حاول أحد منكم البحث عنى فى الزحام . . فلن يجدنى وإذا زار حديقة الشفقة والرحمة . . فلن يعثر عليَّ ، وحتى لو وقف فى ساحة الحب فلن يقع إلا على آثار أقدامى ، وإذا عبر نهر المجد ولن يعبره ، فسوف تغمره من قلب الماء رائحتى .

وأكون أنا بالضبط حيث لا يكون أحد . أقيم فى فردوسى الخاص .

●

كلمتي

كل إنسان حتى المصاب فى عقله أو الذى يعانى من مرض نفسانى يخامره إحساس غامر وملح بأن يحاول نُصح غيره ، أو على الأقل ينقل إليه تجربته فى الحياة . . . إنه معبأ ومحتشد بنتائج تجربته وممارسته لنوع معين من النشاط ، وهو لا يطيق أن يحمله كثيرا من الوقت دون أن يتحدث به للآخرين ، إما تخفيفا عن نفسه لأن هذه التجارب تمثل عبئا على الروح سواء هى حلوة أو مرة .

وإما لأنه يحس أن الناس فى حاجة بالفعل أكيدة ولازمة كى تفيد من تجارب الحياة كما استفاد ، فتمضى فى الطريق السوى وتتنكب السير فى الدروب الوعرة أو الموحشة والخطرة .

وهناك نوع ثالث لا يبغى من سرد تجربته أو عرض ذكرياته تنفيسا ولا ترشيدا ، وإنما استعراضا لبطولة أو رواية لموقف غريبة ، وآراء سديدة أو تسجيلا لنبوغ وريادة ، أو فضلا أسداه للناس والوطن .

أما أنا فمنذ وقت ليس بالقصير أجد نفسى متحمسة لكتابة مذكراتى ، وقد فاتحتنى غير مرة ، ولما أعرضت زادت فى إلحاحها ولم تمل من دفعى

للتفكير فى ذلك ، حتى خضعت لها حينا فأرغمتنى على الجلوس إلى المكتب ، وتأهّبت بعزم لتمليني ما تود أن تقول ، لكنى سرعان ما أنتفض دفاعا عن كرامتى وأكافح نفسى حتى أردها عما هى مقبلة عليه ، فمهما كان حجم الإنجاز الذى تمكنت من تحقيقه فى كل مرحلة من مراحل حياتى بعد أن أكون قاب قوسين أو أدنى من الموت أو الدمار أو التشرد ، فإنها تظل حياتى الشخصية ، فيها ما يمسنى ويمس أهلى الذين كانوا بكل فخر من حثالة القوم .

وترد نفسى بكل ثقة أنك طالما أصبحت صحفيا أو مديرا أو وزيرا فانك تغدو شخصية عامة حتى لو كنت نزيلا بمستشفى الأمراض العقلية ، أو كنت ممددا بعريك على الشاطىء ، تستروح وتتأمل العابثين فى الماء من حولك ، أو وأنت مقبوض عليك وملقى فى غيابات السجون بلا ندم .

تصبح مادة علمية وإنسانية للناس الحق فى الإستفادة بها ، فلا تخلو حياة مثل حياتك من الابداع والابتكار . من القوة والضعف ، من الصبر والنزق . من الشجاعة والإقدام ، وفى كل ذلك درس وعبرة ، وبهذا يمكن أن يتطور الوجود البشرى بالارتفاع فوق آلامه وشحذ هممه والمضى بعزم لاستكمال مسيرة الإنسان الحتمية على الأرض بصورة بناءة وإيجابية تكتسب مع كل يوم مزيدا من الحكمة والجمال ، وتحفر عميقا بحثا عن أروع ما فى الإنسان من إبداع نبيل (عذرا . . . أنا غير مقتنع بالخطبة التى ألقتها نفسى فى السطور السابقة فمسيرة الإنسان لا تكشف عن استفادة حقيقية من تجارب السابقين ، فى حين أن فئران وأرانب التجارب أفضل منه ، وأقل حشرة خلقها الله تستطيع أن تخرج من تجاربها بنتائج أسرع وأدق . . إن

بعض عباقرته هم الذين خلقوا له المجد والصيت ، لكن الغالبية يَدَك منهم والأرض) .

لم تيأس نفسى من دعوتها ، وفى كل مرة أقاومها كانت المعركة تنتهى لحسابها إذ تمتلك قدرة على إقناعى وأزداد أنا تخليا عن كفاحى ، ويترسخ فى أعماقى سمو مقصدها ، بل وأحيى نفسى التى عانت كثيرا ، والتى لا زالت تهفو لمزيد من المجد والخدمات لدودى . . فلم نبدأ بعد فى تأسيس جمعية تشرف على أعمال التسول وتنظيمها وتدريب رجالها بحيث تكون مهنة محترمة ، وجمعية لجمع الأعضاء تبرعا من المشرفين على الموت وبيعها لمن يحتاجها ، وعلينا أن نبنى مستشفى تتم فيه عمليات الزرع وغيرها . . ولا زلت أشعر إزاء وطنى برغبة متجددة للعمل والعطاء ، وإذا كنت أغفر لبعض بنيه محاربتى فأنا أغفر لأنى نجحت ، أما إذا كنت قد فشلت فلم أكن لأغفر أبدا .

من حقى إذن أن أتمدد مسترخيا لأستمتع ولو لعدة أشهر بحلاوة الإنتصار ، لذلك قررت على هدى من الله تسجيل تفاصيل حياتى العامرة بجلائل المواقف ، وخطير الأعمال معتمدا على الله فهو حسبى ونعم الوكيل ، متمنيا أن تكون هذه الصفحات للناس وخاصة للشبيبة الواعدة ولكل متشردى العالم أثمن من الورق الذى سيطالعونها محفورة عليه ، لأنها فى الواقع ليست مسيرة حياة إنسان عادى وإنما هو إنسان موهوب وملهم ، أفنى جل حياته فى خدمة دودى ، كما وأنها تسجيل لكفاح رجال أخلصوا العمل من أجل الآخرين ولا يسعنى فى الختام إلا أن أشكر الأديب فؤاد قنديل الذى أخذ على عاتقه أن يكتب هذه المذكرات بأسلوبه الخاص ، لكن كل كلمة هى منى ، وأنا المسئول عنها .

وأتوجه بالشكر لكل من قدم يدا كريمة ، لهذه الأمة التى تمتلك عناصر كثيرة تقاوم بها التقدم ، وتفضل دائما ألا تتعجل النهضة ، والشكر لكل من ساهم فى خروج هذا الكتاب الذى أتمنى أن يكون مصيره اللائق نفـوس وعقول القراء لا بطون الفئران .

الغريب ألمظ

●

كلمة كاتب الذكريات

منذ عامين طلب إلىّ صديقى ناجى نعوم لاوندى تحديد الموعد الذى يناسبنى للقاء غريب باشا الرئيس العام لجمعيات محدودى الدخل ، وكنت قد سمعت به ، وبنشاطه والضجة الدائمة التى تلاحق أخباره وتعلق عليها .

كان بالنسبة لى يمثل علامتى استفهام وتعجب . . ولكنه ظل إلى حد كبير خارج اهتماماتى إلى أن دعانى ناجى فحددت له موعدا ، وذهبت للقائه . وجدته يعرف عنى كل صغيرة وكبيرة ، حتى أسماء كتبى ونوع دراستى وعدد أولادى وعمل أمهم وعنوان بيتى .

لم أدهش لهذه المعلومات لأن مصدرها معروف . . وبعد جلسة طويلة نسبيا بدا خلالها حاضر البديهة ، خفيف الظل . . طلب إلى أن أكتب له مذكراته . طلبت إعطائى مهلة للتفكير .

كان على أن أفكر ، إذ لست على استعداد لتضييع وقتى فى كتابة مذكرات أى إنسان لا يتمتع بقدر كبير من العظمة والتفرد ، ولحسن حظه كنت قد انتهيت من رواية وأقضى فترة الراحة والتسكع وممارسة بعض

الأنشطة المسلية وغير الأدبية ، ولما كنت مفلسا بدرجة تكفى للقبول ، فقد ذهبت إليه وأعلنته بموافقتى ، فقرر أن يقيم حفلا بهذه المناسبة . . كان الحفل فاتحا جدا لشهية الكتابة . . كتابة مذكرات الغريب ألمظ . . كان الحفل قادرا على غوايتى وإطلاق خيالى مستمتعا بالأتعاب الكبيرة التى سأحصل عليها بعد الإنتهاء تماما من العمل . . .

قلت له : سيحتاج الأمر إلى جلسات طويلة وإلى تسجيلات صوتية ، قال : هناك ملف به عدد كبير من القصاصات التى كتبتها بنفسى على مدى سنوات وفى مناسبات غير منتظمة ، وهناك الصحف التى شرعت تسجل أخبارى بما يشبه الإنتظام منذ عدة أعوام بالإضافة إلى « دودى » والحوارات التى أجراها بعض الصحفيين عن حياتى وتعليمى ومراحل كفاحى .

قلت له : حسن . . هذا كله يمكن أن يمثل هيكلا مناسبا ، علىّ أن أقرأه أولا ثم أعرفك بالخطوة التالية .

فى يوم آخر سلمنى الملف ، وعكفت عليه لمدة شهرين . قرأته وحددت تصوراتى العامه ، ثم شرعت فى الكتابة الأولية على أن أبدأ فى التسجيل بعد ستة أشهر لاستكمال المشروع . . وبالفعل جلسنا فى أماكن مختلفة وسجلت المادة اللازمة ، وقضيت نحو عام آخر أكتب فيه بشكل متكامل هذه المذكرات حتى خرجت بالشكل الذى سلف .

وأملى أن أكون قد استطعت تصوير حياة هذا الرجل الغريب حقا ، وإذا كانت بعض المواقف الحساسة غائبة ، فلقد تحركت داخل الإطار الذى حدده وهذا حقه . . وأرجو أن ينطوى الكتاب على ما يفيد بالسلب أو بالإيجاب .

ف . ق

ودائما هناك من يطاردك

كانت الحمائم البيضاء سعيدة ترتع فى الفضاء الشاسع وأنا الغـريب وراء القضبان . . هل كُتب علىّ أن يصبح الجميع ضدى حتى الحمام . . أيتها الحمائم المحلقة . . يابنت السماوات وعاشقة الفضاء سـوف يسقط المطر على الجميع . . فاستعدى . . إن الفوضى ستدب لأن مكانى أبدا . . ليس هنا . . هاأنذا يدخلنى الرحيل ، وأنا أنزل دفعة واحدة . . أرتطم بكل شىء . . إننى هنا فى قاع النهر لا يسعدنى أن أستمتع بالسكون الخرافى . . أى غرابة وغموض وتناقض يشمل هذا الكون ويستدرجه . . نادرة تلك اللحظات الصافية التى تحوم حولى وتحملنى بحنان حتى لا يتزايد غليان القدر بأعماقى الساخطة .

فهل هذه اللحظات تكفى كى أدخل فىّ ، وأجد السرداب الذى فى النهاية يفضى الىّ . .

العالم جديد دائما وهناك كل صباح ما يدهش ، وهناك ما يرغمك على إعادة حساباتك فهل يتاح لى ذلك ؟ . إن هذه الحجرة المعتمة التى تفوق القبر فى حقارتها توشـك أن تجعلنى حكيما . . أم تـراها تجـارب السنون

المعتقة ؟ . يبدو كل شيء حقيقيا . . والصفاء يغلف كل شيء حتى روحى التعسة . . وأرانى والعالم بوضوح غريب . . الموتى يخطون خطوة إلى الأمام فيحس أحيانا بهم الناس قبل أن تفجأهم النهاية . . أما أنا فالنهاية لم تمهلنى حتى أن أدارى بعض سوءاتى . . وها هو الرماد يلاحقنى ويجد لذة فى اللعب بجواهرى ، والسجن فيما يبدو برغم الصفاء والهدوء لا يشجع على الإلهام ولا يمكّن من استقبال الوحى .

إننى الآن فى حاجة إلى إلهام نبى كى أبحث عن طريق ثالث بعيدا عن مصيرى الوحيدين حتى الآن . . الفضيحة أو الضياع .

أين أنت يادودى لكى تقتلعنى من هنا . . أين أنتم يا من أخذتم جميع الثمار التى كانت لا تكف أشجارى عن إنضاجها . . أين أنت أيها الشعب الذى تصورت أنه يحملنى ويحمل السجن جميعه ليلقى به بعيدا ويستنقذنى منه . . ضعف الطالب والمطلوب.أيها الناس لماذا لم تخرجوا حتى الآن فى طلبى ؟ . . فى إعادة الحرية لرجل تخلى عن كل المناصب ولم يتخل عنكم . . ليتنى قبلت ارتداء الأقنعة السياسية ، فربما حفظت لى بعض ما أنجزت ، وأبعدت عنى الكلاب التى انقضت علىّ بلا رحمة .

أنا . . أنا الذى تتحدث عنه الأرض والسموات تدعى امرأة أنى نلت منها مأربى عنوة . . دناءة . . حيلة حقيرة . . والكل يعلم أننى حين أشير برغبتى فى النساء تتساقط تحت أقدامى العشرات بل المئات . . سقط العجل وكثرت السكاكين التى تطلب ذبحه . .

أين أنتم يامن أنتم ؟ . . أين ؟

شعب نصف من تعلموا فيه جهلة ومن لم يتعلموا نصفهم سفلة ومجرمون ، ونصف النصف مُدّعون ووصوليون ولصوص ، والنصف الآخر

بسطاء بشكل تعس ، ولا يقلون خطرا عن النصف الأول . . أما الصالحون . . لا . . لا أعرف أين ذهبوا وخلفونى .

. . لن أنحنى . . أنا لا زلت أعانى من المجد ولا زالت الشهرة تلاحقنى ، ومن المحتمل أن أموت عظيما برغم عزلتى . . إن هذا الشعب ينتظر موتى بفارغ الصبر ليعلن سخطه على العالم وعلى المنافقين الذين لطخوا شرفى . . ولكنهم لن يتحركوا الآن . . هذه هى عادتهم . . سوف تجرى دموعهم فى نهر عظيم يسير بمحازاة نهر النيل حتى النهاية ، لكنه لن يصب إلا فى الخلاء والخواء والذاكرة المثقوبة . . لعنة الله على الجميع .

لقد فقدت نفسى ثانية بعد أن عثرت عليها وعثر عليها الناس . .

إنهم الآن يطلقون نيران مسدساتهم علىّ ، ولكن المستقبل كفيل بأن يطلق عليهم مدافعه . . لن تنفعهم الإشاعات بأنى سرقت أو نهبت أو زنيت . . والإدعاء بأن أموالى بالخارج غير صحيح . . سوف أقسم لهم على ذلك ، إنهم يريدون أن يمسكوى من ذيلى ولن يفلحوا ، وحتى لو أفلحوا فمازال للثور قرنان يستطيع بهما أن يصيب أعداءه . . لعنة الله على الجميع . . من يملك الجسارة كى يخرجنى من هنا .

أرحب بالجميع إلا أنت ياصاحبة الوجه العنبرى . . كله إلا التشفى . .

أريد أن أتحدث إلى أحد أو أصرخ فى وجه الشيطان . . زنزانة انفرادية . . سكون تعس . . من يفض بكارة الصمت المتعفن .

هاهو الورق والقلم . . لابد من دعوة ابن القنديل ليكتب مذكراتى من جديد . . لا . . سوف أكتبها أنا . . أنا هنا بين الوقت والحسرة .

ذهبت إليه . . كان على أن أعرف رأسى من رجلى . . أين نصيبى فى الصفقة المتفق عليها . . لقد أنجزت له ما طلب .

دخلت عليه . . كان مسكينا حقيقيا جديرا بالشفقة . . طالت لحيته . . يدخن فى عنف وينفث الدخان كالسباب . . ظهرت شعرات بيضاء بحاجبيه وذقنه . . ملابسه قذرة ، وفى حجرته كل ما يلزمه ، لكنه كان يرفع رغما عنه راية التعاسة والسخط . . إكتشف وجودى بعد مدة ولم أحاول تنبيهه . . قفز عندما رآنى .

قال لى : أنت . . أنت ياقِن . . يخرب بيتك ، أنت ابن كلب واحشنى

تنهدت وتأثرت . . كانت فيها أذكر أول مرة أسمح فيها لأحد أن يسبنى . . عانقنى .

سألته : هل كنت تنتظرنى ؟ . . أقصد تتمنى أن ترانى

قال : أنت الوحيد الذى تمنيت أن أراه

سألته : لماذا ؟

ألقى بالسيجارة على الأرض وتقدمت منه لأسحقها ، دفعنى بعيدا عنها . .

تفتف وهو يقول : أما انت بايخ

ــ أجبنى

ــ لا تضيع وقت الزيارة

ــ أسألك عن رجالك

ــ لا يشغلنى الآن هؤلاء الرجال . . ليس بينهم رجل حقيقى الا تسملولة ولاوندى . . الشيخ لاوندى ابن الكلب يقول لى :

ـ ياأيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم . . طردته طبعا . . أنا مغرور ! . علمناهم الشحاتة سبقونا على البيبان . . قل له لا يأتينى هنا أبدا .

ـ عنده حق

ـ تصور . . أنا الغريب ألمظ هنا فى السجن

ـ هل أنت كبير عليه !

ـ نعم

ـ أنظر إليه على أنه راحة واستجمام

ـ ياريت

ـ فترة قصيرة . . قصيرة جدا

تقدم منى

ـ صحيح !

ـ مؤكد . . أنت هنا فى غير مكانك المناسب

ـ هل تكلمت مع هيئة الدفاع ؟

ـ لا

ـ ولماذا إذن أنت متفاءل ؟

ـ أنا أحب أن أكون كذلك

ـ خطأ . . إلحق نفسك . . لا يفعل ذلك إلا الحمير

ـ هل تعود للشتم

ـ لا أقصد

أشعل سيجارة أخرى وكأنه يختبىء منى . . قلت له

ـ لا أذكر من الذى قال « وجدت العراقيل لكى تكتسح ، والقيود لكى تنكسر » .

ـ ألا تعرف أحدا قال وجدت السجون كى نخرج منها ؟

ـ لم يقل أحد ذلك

ـ ولن يقول . . أنا على حسب حالتى أقول وجدت السجون خصيصا كى ندخلها . .

قدمت له علبة البسبوسة التى علمت أنه يحبها . . فتحها وابتسم نصف ابتسامة :

ـ بسبوسة بالقشدة

ـ ألازلت تحبها . ؟

ـ جدا . جدا . . لكنها بعيدة . . ربما الآن هى فى لندن

ـ انها بين يديك

ـ مضى ذلك الزمن الذى كانت فيه بين يدى

ـ ياغريب باشا

ألقى بالبسبوسة فى الأرض وصرخ

ـ لاتقل لى ياغريب زفت . . أنت فاهم

ارتجفت من هول الفزع عليه والإشفاق . . إنحنيت فى هدوء والتقطت سيجارته التى سقطت مع البسبوسة . قدمتها له ، أخذها وقذفها من الطاقة العالية . . طارت السيجارة خارجة واختفت فى الفضاء .

استدار نحوى فجأة وأشار إليها وهو يضحك . . طارت . طارت السيجارة . . خرجت من بين القضبان . . وتعالى ضحكه . . تعالى حتى انقلب على ظهره ووقع على علبة البسبوسة . . ثم نهض وهو يضحك يضرب كفا بكف . . إحمرّ وجهه ثم إزرق وانتفخت جميع عروقه . . أغمض عينيه . . استدار وجهه وتضخم . فمه إلى نهايته مفتوح ولا يغلق

إلا لثوان ربما ليلتقط أنفاسه . ظل يضحك حتى خلته أشرف على الجنون أو جُن بالفعل ، لكنه فتح عينيه وسكت . . تأملنى لحظة ثم قال :

ـ لماذا لا تضحك ؟ . . هيا . . ألم تكتب المذكرات . . ألا تتذكر أننى قلت لك أننى سأذهب إلى الجنة . . ألم تعرفنى منذ سنوات ؟ وتتأكد من صدقى . . إذا كنت واثقا من صدقى فاضحك . . إضحك إننى أنا الغريب المظ . . فى السجن . .

استعدوا . . . إن الفوضى ستدب فى العالم أجمع . . لأن مكانى ليس هنا ليس هنا . . أنا أقرأ طالعكم . . نعم . . أراه واضحا كبراءتى المغتالة .

ـ تمهل حتى أمسح لك البسبوسة التى التصقت بظهرك

تفتف وهو يقول

ـ حتى البسبوسة . . تطعننى فى ظهرى

ـ يارجل

ـ أنا أعرف أننى دفعت بأنفى فى فوهة المدفع ، ولكنى كنت أحسب أن الدار آمان والعالم يتمتع بالحرية اللائقة بالجوعى . . ألست معى فى أن . .

ـ إسمح لى . . أنا لا أعرف عنك إلا القليل . . كل البسبوسة

غرف بيده فى العلبة وحشى فمه وسرعان مازلطها . . أشرت إليه بأن يعيد الكرة . . لم ينتظرنى . . غرف وزلط ثم غرف ولاك بسرعة واختفت . . غرف ولاك على مهل ، وبدت على ملامحه مسحة من الرضا .

أشعل سيجارة وجلس . . ثم اندفع يتفتف وتتصادم كلماته :

ـ أنت . . لم أكن أتصور . . أنه بالامكان اختراقى . . أنا ضد التسوس . كائن أنا . . ضد . . كيف حدث هذا ؟

ـ المرأة التى اغتصبتها ، وأعقبها آخرون . . القطط لعبت فى كريات خيوطك

ـ غير صحيح . . لماذا أغتصب وكلهن يأتيننى ويلعقن أقدامى.إننى أشك فى نوايا كل من دفع بى إلى هذه المباءة ، وأشك فى أمهاتهم أيضا . . إنهن الراقصات والممثلات اللاتى لم يعملن معنا فى الإستربتيز

ـ أنت ثائر وهذا السلوك غير مجد . . فكر ورتب آراءك وحدد نصائحك للمحامين . .

ـ لن أستسلم أبدا . . قل لأولاد العاهرات . . لن أستسلم ، أنا لست عاجزا كسلحفاة منقلبة . . قل ذلك لهيئة الدفاع من المحامين الذين يتبولون ويتبرزون من أفواههم

ـ قل أولا . . ما الذى تحب أن أحضره لك معى فى زيارتى القادمة

ـ عزيزة التونسية

ـ لقد سافرت

ـ إنها مثلهم . . ولابد أنها حملت ما استطاعت

ـ لماذا لا تحمل ما دامت مثلهم !

ـ هل كل ما فعلناه كان كومة من رمل هبت عليها العاصفة

ـ لا تبالغ . . إنها زوبعة فى فنجان

ـ وبعدها

ـ تخرج وتمارس دورك العظيم

ـ سأجد الحطام فوق الحطام

ـ الكل يعرف قيمتك حتى لو بدا أن الجميع اختفوا

ـ شىء غريب

ضرب كفا بكف وتحول عنى . . ألقى السيجارة وتركها تشتعل وتدخن وتحرق نفسها . . كيف يحترق هو وينطفىء الآخرون . . سألنى . . أو سأل قدره

ـ هل أنا أستحق خيبة الأمل ؟ هل ترى تلك البراغيث التى تسبح فى كوب اللبن . . إنها تذهب وتجيىء مستمتعة وتبعث لابد بنظرات الإزدراء نحوى . . بإمكانى أن أبطش بها . . وأنت تعلم

ـ لن يفيدك هذا الأسلوب . . صدقنى . . رتب أفكارك . . واكتب

ـ نعم . . ألم تكتب مذكراتى ؟

ـ ذكرتنى

ـ سوف أكتب الجزء الثانى من المذكرات

ـ لم أكن أود أن أسألك هذا السؤال . . لكنى لا أستطيع كتمانه

ـ أى سؤال . . اسأل . . غيرك لم يتح لى فرصة الإجابة .

ـ إذن أسألك

ـ قل ياأخى وإلا فاذهب تصحبك اللعنة

ـ أجرى عن المذكرات . .

ـ أى مذكرات

ـ التى كتبتها

ـ آه

ـ مالها المذكرات ؟

ـ أجرى الذى وعدتنى به

ـ ألم تأخذه ؟

ـ ألم تعدنى بأن تسلمنى شقة بعد الإنتهاء منها

ـ وهل انتهيت ؟
ـ إنها تطبع الآن
ـ إلحق بها . . أنا لا أريدها أن تطبع
ـ ولكنها طبعت بالفعل . .
ـ أخشى أن تقضى على
ـ بل ستساعد باذن الله فى خروجك . . فهى تمثل قمة البطولة والوطنية
ـ هل أنت متأكد ؟
ـ ماذا قلت ؟
ـ هل أنت متأكد ؟
ـ أقول لك ماذا قلت عن الشقة ؟
ـ أى شقة ؟
ـ أجرى
ـ تريده شقة ؟
ـ أنت قلت ذلك
ـ مادمت قلت ذلك فأنا صادق
ـ وكيف أحصل عليها ؟
ـ إذهب إلى أى عمارة فاختر منها ما تشاء
ـ لقد وضع كل شىء تحت الحراسة
ـ حتى المشروعات !
ـ كلها

ـ إننى قلق جدا على دودى . . محدودى الدخل المساكين

ـ إقلق على نفسك ياابن ظاظا

ـ كيف لا أقلق عليهم ؟

تنهدت وتركته وأنا أقول له ـ لهم رب اسمه الكريم . . بلغنى هتافه : إبعث إلىّ بـالشيخ لاونـدى وابحث عن عبـد الجبـار . لا تنس . . عبـد الجبار .

بنها فى ديسمبر ١٩٩٠

●

صدر للمؤلف

مجموعة قصصية :	الناشر
١ ـ عقدة النساء ١٩٧٨	المؤلف
٢ ـ كلام الليل ١٩٧٩	المؤلف
٣ ـ العجز ١٩٨٣	دار الهلال
٤ ـ عسل الشمس ١٩٩٠	هيئة الكتاب
٥ ـ شدو البلابل والكبرياء ١٩٩٤	مختارات فصول
٦ ـ الغندورة ١٩٩٦	هيئة قصور الثقافة
٧ ـ زهرة البستان ١٩٩٩	هيئة قصور الثقافة
٨ ـ قناديل ٢٠٠٣	كتاب الجمهورية
روايات :	
١ ـ أشجان ١٩٨٠	الشركة العربية للنشر
٢ ـ الناب الأزرق ١٩٨٢	المؤلف
٣ ـ السقف ١٩٨٤	هيئة الكتاب
٤ ـ شفيقة وسرها الباتع ١٩٨٦	دار الغد العربى
٥ ـ عشق الأخرس ١٩٨٦	كتاب أخبار اليوم
٦ ـ موسم العنف الجميل ١٩٨٧	هيئة الكتاب
٧ ـ عصر واوا ١٩٩٣	دار الهلال

٨ ـ روح محبات ١٩٩٧

٩ ـ حكمة العائلة المجنونة ٢٠٠٠

١٠ ـ الحمامة البرية ٢٠٠٣

دراسات :

١ ـ شيخ النقاد محمد مندور ١٩٨٦	دار الغد العربى
٢ ـ نجيب محفوظ كاتب العربية الأول ١٩٨٨	هيئة قصور الثقافة
٣ ـ إحسان عبدالقدوس عاشق الحرية ١٩٩٠	هيئة قصور الثقافة
٤ ـ نظرات فى المرأة والزواج ١٩٩١	دار الشباب
٥ ـ أدب الرحلة فى التراث العربى ١٩٩٣	هيئة قصور الثقافة
٦ ـ رعاية الموهوبين ١٩٩٨	هيئة قصور الثقافة
٧ ـ صناعة التقدم فى مصر ٢٠٠٠	مكتبة الأسرة
٨ ـ فن كتابة القصة ٢٠٠٢	هيئة قصور الثقافة

تحت الطبع :

ـ رتق الشراع	رواية
ـ أبقى الباب مفتوحاً	رواية
ـ أشياء تصلح للعب	قصص
ـ الرواية الأفريقية	دراسة
ـ مواجهات	مقالات

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٣١٣ / ٢٠٠٣

I.S.B.N 977 - 01 - 8671 - 6